منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

ليلى العثمان



المرأة والقطة

رواية

المرأة والقطة

رواية

ليلى العثمان

• روائية من الكويت

كيف جاءت ذلك اليوم. وقفت بجسدها الجميل فوق حافة السور. وعكست الشمس خيالها على الأرض أمامي. لم أصدق. رفعت إليها وجهي. أسرعت. فتحت لها ذراعي فألقت بنفسها لاهثة بينهما. وكأنها ترتمي على فراش من القطن.

شددتها إلى صدري. فماءت متألمة. شعرت أن وزنها ازداد. داعبت جسدها تلمّسته برفق. فوجئت بانتفاخ في بطنها. ربت عليه بلطف. فرحت. كدت أضيع في فرحتي لولا أنني تنبهت إلى أنني أعيش في بيت تسكنه عمتي. أسرعت إلى غرفتي أخفيت دانة في فراشي وجلست أراقبها وعيني لا تشبع منها. حتى بدأت بالتثاؤب وحين أغفت خرجت إلى الحوش كي لا تلحظ عمتي غيابي.

صدر للمؤلفة أيضاً عن الدار العربية للعلوم ناشرون:



تصميم الغلاف: سامح خلف

ISBN 978-9953-87-860-7


9 789953 878607

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

الطبعة الأولى
1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-860-7

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/ فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

السكون يخيِّم على المكان، ظلال النافذة المُحكمة بشبك الحديد تسقُطُ حيث زاوية الفراش. فتنشر زخارفها فوق الوسادة وعلى الأشياء الموضوعة فوق الطاولة. كوب ماء من البلاستيك، قطع شاش ومناديل، علبة شوكولاته، صحن فاكهة بلا سكين وأشياء أخرى صغيرة مبعثرة.

هو فوق السرير. رافعاً ركبتيه، متكئاً عليهما بذراعين تُسندان رأسه الملقى بكسل. وجهه ساهم، بضع قطرات من عرق ودموع تلتمع على وجنتيه وشفتيه المصفرّتين.

لم يبدُ أنه شعر بوقع الخطوات رغم أن صرير الباب سبقها. توقف الشرطي بقربه، وبحذر شديد مدَّ كفّه، لامس كتفه، ناداه:

- سالم.

لم يحرّك ساكناً. عيناه جامدتان.

هزّته اليد ثانية:

- سالم: معي ضيف يريد مقابلتك.

رفع رأسه بحركة سريعة مفاجئة، لم يلتفت، نظرته باتّجاه الحائط. صوته صارخاً:

- لا أريد أحداً، لا أريد، لا...

أخفض رأسه، دسّه بين ركبتيه، شدَّ عليه بذراعيه مؤكداً رفضه. نظر الضيف إلى الشرطي، أشار له أن يبتعد. ودنا بخطى ثابتة هادئة، مسَّ كتف الشاب مسّاً خفيفاً مدركاً أن ثورة مكبوتة قد تنفجر. هتف بصوت حاول أن يبدو حانياً:

– سالم.

لم يستجب الشاب. علت نبرة العتب في صوت الضيف:

– هل هكذا تستقبل ضيفك؟

حرّك سالم رأسه بضيق وزفر. أدرك الرجل أن صعوبة تواجهه. حرص أن تبقى رنّة الحنان بصوته:

– سالم. أنا المحامي الذي سيدافع عنك. ولا بد أن نتحدث.

رفع سالم وجهاً باهتاً. ألقى نظرة سريعة على وجه المحامي خالية من أي تعبير. ارتعشت شفتاه. أطرق برأسه. انزلقت – غترته – المتّسخة عن رأسه. انكشف شعره الملبّد. كفه تهرش بعصبية فروة رأسه التي لم يلامسها الماء. صوته المخنوق بالألم يرتفع حاداً.

– لا أريد دفاعاً. فقط أريد عمّتي.

جلس المحامي على طرف السرير فاهتز مُصدِراً جعجعة خفيفة. اقترب أكثر، أحاط كتفيّ سالم، ربّت عليهما:

– اهدأ. أعدك أن أساعدك. لماذا تريد عمتك؟

التفت إليه ونظرة حمراء تطل من عينيه تشي بشرر مخزون. رفع أطراف أصابعه النحيلة شبكها بعنف كمن يقبض على شيء. صرخ:

– أريدها. سأطبق على عنقها حتى تموت.

شحن المحامي جرأة في صوته. واجهه:

– تريد أن تقتلها بالطريقة التي قتلت بها زوجتك حصة!!

كمن مسّته صاعقة... ارتعد. هبَّ من الفراش. فاحت رائحة عرقه المخزون حامضة. أخذ يصارع الهواء بذراعيه يلعلع بالصراخ. دلف الشرطي. وقف قريباً تحسّباً لأي ردّ فعل مفاجئ. كان سالم قد اتجه إلى الجدار. يضرب عليه بكفه ضربات عنيفة تتماوج مع صوته المتألم:

– لم أقتلها. ولم أقتل القطة دانة، عمّتي هي التي فعلت. هي القاتل.

احتواه المحامي بذراعيه. أعاده إلى السرير. ظلَّ يرتعش وقد تعرّق وفاضت دموعه. هدأه:

– أعرف يا سالم. عمتك قتلت دانة. لكن مَن قتل حصة؟

فارت رغوة حزنه، نواحه، صوته الذبيح صارخاً بين النشيج:

– ما أدري. أنا ما قتلتها. ما قتلتها.

– سأصدقك يا سالم. اهدأ. وتذكر كل شيء. لازم تعطيني البرهان أنك لم تقتلها.

تثاقلت هوجة صراخه. تحوّل البكاء أنيناً أشبه بعواء كلب مفجوع بموت صاحبه.

ابتلع دموعه. التفت إلى المحامي. شدَّ على يده. بلّلها، توسل:

– الله يخليك. ساعدوا دانة. طلعوها من المرحاض. لقد جاعت.

صوت المحامي ونظرته إلى الشرطي:

- ألم يأكل بعد؟

ثم نحو سالم:

- ما زلت ترفض الطعام!

صوت سالم معانداً:

- لا أريد الأكل. دانة في المرحاض. لا أريد أن أتبرز على وجهها. طلّعوها وهاتوا عمّتي لأقتلها.

شدَّ المحامي على كفه:

- يا سالم. انسَ دانة. كلمني عن حصة. ماذا حدث آخر ليلة؟ مَن قتلها؟

أنت...؟ أم...؟

اشتعل غضبه. تناثر الزبد من شفتيه. امتدّت أصابعه تشد أزرّة الدشداشة تمزقها وتضرب على صدره بعنف كمن يودّ لو يُسكت النبض فيه:

- حصة أحبها. شلون أقتلها؟

انفلت يدور في الغرفة كذبابة في نزعها الأخير. يرتطم بالجدران والشرطي يلاحقه ليمسك به. صوته متقطعاً مهترئاً من الصراخ:

- أنتم ظالمون. أنا ما أقتل حصة. أنا أحبها. أنا... لا...!

فَقَدَ السيطرة على نفسه. أخذ يخبط صدر الشرطي ليبعده. اقترب المحامي شدَّ عليه. لكنه قاوم بشراسة جعلت الشرطي يسارع إلى الباب ينادي.

يدخل شرطيان. يحاصران الشاب. يحملانه إلى غرفة العلاج. المحامي بأثرهما بينما عيون السجناء الآخرين تتابع المشهد بصمت.

ثبّت جسده فوق سرير العلاج. أعدَّ الطبيب الإبرة غرزها في ذراعه وهو ما يزال يقاوم ويعنف، حتى سرى المفعول فهبطت الذراع متدلية، وأسبل عينيه الدامعتين.

جلس الطبيب إلى مكتبه. خاطب المحامي:

- يرفض الطعام. حالات الهياج لا تفارقه.

- ما الحل؟

تساءل المحامي:

- سأكتب تقريري الآن.

«حالة السجين سيّئة. يُنقل تحت الحراسة والملاحظة إلى المستشفى للراحة والعلاج».

* * *

حين تثاءبت عيناه وانفتحتا كان وحيداً، هادئاً مستسلماً في فراشه الأبيض، قليل من أشعة الشمس ينفذ إلى الحجرة ويرتاح على نصف وجهه الذي يبدو هزيلاً أصفر. وجه يعلن أن شيئاً كبيراً ينهش صاحبه ويستلب راحته.

أما جسده فقد كان مثقلاً لا يقوى على الإتيان بحركة. وحين سمع الباب يُفتح استدار برأسه ناحية الصوت. عندما لمح الطبيب أشاح إلى الناحية الأخرى.

اقترب الطبيب من السرير. ابتسم. لكن المريض الذي أشاح

لم يلمح ابتسامته، وحده الصوت دخل إلى مسامعه قوياً:

– صباح الخير يا سالم.

لم يرد.

تحرّك الطبيب بهدوء إلى حيث استدار وجه سالم. نظر إليه. ابتسم ثانية لكن ابتسامته لم تُقابل بترحيب. سأله الطبيب:

– ها: كيف الحال الآن؟

لم ينبس. كرّر الطبيب سؤاله بطريقة أخرى:

– ألا تشعر بتحسّن ولو قليل؟

– لا أشعر بشيء أبداً.

ابتسم الطبيب ابتسامة مشجعة. برَّر له:

– ذلك بسبب كمية المخدر.

صوت سالم يتأوه:

– أنا تعبان. ضائع.

استلَّ الطبيب ذراعه من تحت اللحاف. قبض على رسغه. عيناه على الساعة، لحظة وقال:

– النبض جيد. أنت بحاجة للراحة. سترتاح أكثر لو تحدثت للمحامي.

سحب سالم ذراعه. أشاح بوجهه متبرّماً:

– لا أريد أن أكلم أحداً.

في محاولة لإقناعه:

– نريد أن نساعدك يا سالم.

قال الطبيب جملته منتظراً إجابة وترحيباً. تحرك سالم. رفع

جذعه. استند على كوعيه. رفع عينين حزينتين، سأل الطبيب بصوت واهن:

– تساعدونني؟ شلون؟ هل تعيدون الوجوه التي فقدتها؟

لاح بشْرٌ في وجه الطبيب. اعتبر سؤاله مدخلاً مناسباً ليبدأ حواره:

– كلمني عن كل الوجوه التي تحبها. ويمكن أن...

قاطعه وقد انبثقت من عينيه نظرة اتهام:

– أنت كذاب... كيف تعود الوجوه التي ماتت؟ دانة قتلتها عمّتي. وحصة...

قاطعه الطبيب:

– مَن قتلها؟

بهت وجه سالم. اختنق صوته بالعبرات:

– ما أدري. ما أدري.

حرّضه الطبيب:

– حاول تتذكر كل شيء يا سالم.

شدَّ على رأسه:

– يا ليتني أتذكر.

كرّر الطبيب رجاءه:

– حاول. لو حاولت تستطيع أن تقول...

– ما الفائدة؟ أنا لا أريد أن أعيش بعد دانة وحصة...

– هل من أجل هذا تسكت وترفض الأكل؟

هزَّ سالم رأسه بألم. تابع صوت الطبيب:

– أنت شاب. والمستقبل أمامك.

قهقه سالم بصوت أفصح به عن مقدار العذاب الذي يلوب في داخله:

– ماكو مستقبل بعد حصة!

– لا تفقد الأمل. حاول. تذكر. ساعدنا. لنساعدك.

* * *

«لماذا يلاحقونني؟ يريدونني آكل لأعيش. لمن أعيش؟ حياتي كانت مُرّة منذ أن فقدت وجه دانة – والآن. ستكون أكثر مرارة بعد أن غاب وجه حصة. لم يبقَ إلا وجه عمّتي يطاردني كلما أغمضت عيني، أراها تشرع مخالبها وكأنني فأر تريد تمزيقه. لماذا يريدون نبش ذاكرتي؟ ماذا أتذكر؟ وجه أمي الرائع الذي غاب عن البيت أم وجه دانة الذي غيّبته عمّتي في الظلام.

آه يا دانة، حبيبتي ورفيقتي. أذكر لقاءنا الأول. عادت أمي من السوق تحملها بين يديها. بيضاء مثل القطن. يتناثر شعرها على عباءة أمي. قدّمتها لي سعيدة. وقالت: انظر يا سالم كم هي جميلة.

تأملتها. قرّبت عينيّ من عينيها الجميلتين. فماءت بصوت حنون كأنها تحيّيني. قرّبتها إلى صدري. رصصتها إليَّ. طبعت قبلتي الأولى على رأسها الصغير. ومنذ ذلك اليوم عاشت بين يديّ. كنت لا أنام إلا وهي في حضني تربض بأمان ووداعة. أقسم لقمتي بيني وبينها لتكبر ويطول ذيلها الجميل.

لكن عمّتي كرهت القطة التي صارت سلوتي مثلما كرهت أمي التي كان أبي يحبها. أمي كانت طيبة، لكنها عاشت حياتها

مذعورة، مهددة أن تفقد البيت، والزوج وأن تفقدني أنا الذي كنتُ حلمها ليل نهار.

شرّ عمّتي كان يلاحق أمي. محاولاتها استمرّت لتقطع الوصل بينها وبين أبي».

* * *

صوت عمّته الشرير تهادى إلى مسامعه ذات يوم وهي تهذر بكلام كثير عن أمه.

سمعها تأمره:

– لازم تطلقها.

صوت أبيه مرتجفاً:

– إنها طيبة. وخدوم.

صرخت عمته:

– لكنها تكرهني.

دافع أبوه:

– أنت تعاملينها بخشونة وقسوة.

– لا تدافع عنها.

– لا تنسي أنها أم ولديّ. وقبلها طلّقت زوجتين.

زعقت:

– يعني أنا المسؤولة؟ تذكّر زين. الأولى خانتك مع «عبد الجيران».

ردَّ كمن ينفي:

– أنا ما شفتها بعيني.

تجاهلت دفاعه. أكملت:

– الثانية كا...

قاطعها أبوه متوسلاً:

– لا تظلميها. «المَرَة» ما كانت شينة.

– «طاحت برأسك حتى تزوجني سعيدان».

– كانت تريد لك الخير – تتزوجي. وتفرح بعيالك.

أنكرت عمّته الفضل وفسّرته:

– لا. كان همّها أن تبعدني عن البيت حتى تعيش فيه بروحها.

وهزئت بضحكة. ارتفع صوتها منتصراً:

– لكن أنا اللي أخرجتها.

ارتجف قلب الصغير. عصف الخوف بطفولته. أحس برداً قاسياً يلفحه. خشي على أمه التي كانت غاضبة في بيت جدته. صوت أبيه محاولاً:

– يا بنت الحلال. كفِّي الشر. روحي خذي بخاطرها وعودي بها.

زمجرت عمته:

– أنا أراضيها؟؟ هيه... والله ما ترجع.

احتجَّ صوت أبيه:

– وهذا الصغير، يتربّى يتيماً بلا ذنب؟

– «خَلْها تذلف» مثلما ربيتك. أربِّي ابنك.

زفر أبوه ولم ينطق، تحاشى شرّها، لكنه ترك الشّر يزحف. تلك الليلة لم ينم سالم. حاصره الخوف. تذكّر أمه. أحسّ

طعم قبلتها يوقظ حنينه. ودَّ لو يفرّ من فراشه إليها، أو يفرّ إلى فراش أبيه المستسلم لمخالب عمّته التي تمزّق حياته. تدمي وجوه أحبابه. تعبث خراباً في حدائق أحلامه وتبتر سيقانها حتى لا تنمو نحو السماء. ودَّ أن يصرخ في وجهه. يتوسل: لا تترك أمي.

لكن عمّته أفلحت.

«طلق أبي أمي. كرهتُ ضعفه واستسلامه. منذ ذلك اليوم تكوّمت على نفسي. لم أجد مَن أبوح له بأحزاني سوى دانة. أشكو لها حرماني، ووحدتي، وأستمدّ من نظراتها الوديعة مزيداً من الشجاعة لأصبر، وأحتمل غياب أمي وغياب أبي الذي كان موجوداً لكن حنانه غائب. لم يستطع أن يعوِّضني فقدان أمي، وحين يتقرّب أحياناً ليعانقني أو يداعبني تصرخ فيه عمّتي:

– لا تفسد الولد بهذا الدلال.

ترتخي ذراعاه. أنزلق من بينهما. ألمح في عينيه الأسف والضعف والمرارة. كل هذا لم يدفعه مرة واحدة أن يصرخ في وجهها ويعلن: (هذا ولدي. يجب أن أعوِّضه حنان أمه الذي حرمته منه).

لكنه أبداً لم يفعل، دوماً كان مشلول اللسان. فاقداً لإرادته. كنت محروماً منه ومحروماً حتى من زيارة أمي التي لم يغب طعم حنانها. لم يجرؤ أبي أن يأخذني لزيارتها. لكنها المسكينة حملت شوقها وجاءت ذات يوم».

* * *

حين فتحت عمّته الباب. كان يجلس على تراب الحوش. دانة

في حضنه وهو يرسم على التراب وجهاً لا يضبط ملامحه. لكنه وجه أمه الذي لم ينسه لحظة. ولم ينسَ أنها خرجت من البيت دون ذنب.

دخلت أمه، لم يصدق. ألجمته المفاجأة. لم يتحرك. حين رأته لاصقاً مكانه هرعت إليه. أسقطت جسدها النحيل بقربه. اندفع إلى صدرها، تمرّغ عليه، استنشق الرائحة العذبة التي فارقته، بحث عن رائحة تبقى معه، تعزيه في وحدته بعد أن تغادر أمه، كان بحاجة لأي شيء منها حتى ولو دمعة تبلل بملحها جفاف ليله وترطب فراشه.

التحم وأمه في عناق دامع محموم. لكن المخالب التي فتحت الباب تبعت أمه.

اقتربت لتبتر اللحظة بحدّة وقسوة. سحبت العباءة المتهدّلة عن رأس أمه وصرخت:

- أنتِ؟ شنو حذفك علينا؟

رفعت أمه وجهاً لن ينساه. كان بحراً من الحزن والدموع والتوسّل:

- ولهتُ على سالم.

لم تشفق العمة. انحنت إليه تشدّه من حضن أمه، تشبّث بثوبها صرخ:

- أمي... أمي...

لكن الأنياب انغرزت في لحمه. قرصته قرصة عاشت لأسابيع في فخذه، جرّته مثل جرو، ألقته بعيداً، وصرخت في وجه أمه:

- قومي، اخرجي وانسي أن لك ولداً هنا.

أخمدت الرجفة العاصفة شفتيّ الأم الصفراوين. كانت عيناها تمتلئان بمطر حارق، بكت، أفرغت كل دموعها، لعل قلب العمة يرحم أو يلين. لكنها تمادت بالقسوة. أخذت ترفس أمه بقدمها، وتكيل لها الإهانات:

- روحي لزوجك الثاني يا...

لملمت أمه عباءتها. اقتربت منه قبل أن تخرج، كان وجهه معفّراً بالتراب وبالدموع.

دانة التي لحقت به تربض في حضنه مرتعشة، قبل أن تنحني لترفعه إليها كانت يد عمّته تشدّه بعيداً.

* * *

«ابتعد وجه أمي عني. وبقيت سنوات طويلة... طويلة... أنتظر قبلتها التي لم تصل. دخل أبي حاملاً تعبه وضعفه وكيساً تطل من رأسه أوراق الفجل الذاوية. استقبله وجه عمّتي العابس، حيّاها، لم ترد. التفتت إليَّ. فأرخيت وجهي هرباً. ألقى السؤال المرتعد على عمّتي:

- ما بك؟

توقع شرّاً حين وثبت عمّتي كالنمرة.

- جاءت أمه اليوم.

قالت هذا وهي تشير إليَّ.

لمحت في وجه أبي بشراً وراحة. نقل عينيه بين وجهي الذي توقع أن يراه سعيداً، ووجه عمّتي الغاضب:

- زين. جاءت تشوف ولدها. حقّها.

هزّت ذراعها الصلبة في وجه أبي:

- ما لها عندنا حق. بعد أن تزوجت.

هزَّ أبي كفه بضعف:

- كفى... كفى.

لكن لسان عمّتي لم يسكت:

- سأمنعها. لا أريدها أن تدخل بيتنا. تفسده وتوغر صدره عليَّ.

لم يحاورها أبي. علّق نظرته بوجهي كأنه يودّ أن يؤكّد لي فرحه بمجيء أمي ورؤيتها إياي حتى وإن تعفّرت تلك الرؤية بسوءات عمّتي. تلك النظرة التي أطلت من عينيه مسحت شيئاً من الأسى. فرشت غيمة أمل تصوّرتُ أنها ستمتدّ وتكبر ويتحقّق خيرها.

في تلك اللحظة بكيت. أشفقت على نفسي. وعلى أبي. عذرته رغم كراهيتي لضعفه هل كان بمقدوره ألاّ يكون ضعيفاً أمام عمّتي؟ هي أكبر منه بسنوات كثيرة. ربّته منذ توفي جدّي وجدّتي في حريق شبَّ في البيت. هكذا أفهموني. لكنني حين كبرت عرفت من أمي أن امرأة أخرى كانت تبيع البخور وماء الورد أحبّت جدي لاحقته ليتزوجها ورفض. وذات ليلة شبَّت النار في صدرها. تأجج الحقد الأسود تسلّلت في الليل، سكبت الكاز حول غرفة جدي النائم بسلام مع جدتي. ثم أشعلت النار وهربت. تفحّم الجسدان. ونجت عمّتي وأبي اللذان كانا يبيتان في بيت عمتهما تلك الليلة.

كان أبي صغيراً تولته عمّتي في البيت الذي شهد مأساة الجدّين.

ثم شهد بعد ذلك مآسي أبي تحت كنف عمّتي الظالمة. حرمته من ثلاث زوجات آخرهنّ أمي التي خرجت مظلومة، يائسة».

* * *

وجه عمّته يلاحقه، في السجن، في المستشفى، هذه الماردة التي قتلت دانة... مَن غيرها قادر أن يقتل حصة؟ أن يخنق الحياة ويشرب الدماء؟ لم تقاسِ حصّة وحدها ذلك الظلم من العمة. لم يسلم أبوه، لم تسلم زوجاته السابقات، ولا أمه التي لا يغيب مشهدها المؤلم عنه وهي تفصله عنها. ولم تسلم حتى القطة دانة.

«دانتي لطيفة. أليفة، تتحرّك حولي، وعلى أسوار البيت المطلّة على الجيران. نزهة يومية توقظ النشاط في جسدها الذي يرتخي طوال الليل بين ساقيّ، لكن عمّتي كرهت هذه النزهة – لاحقتها ذات يوم بعصا غليظة. دانة التي لمحت العصا انتابها رعب جعلها تقفز قفزات أكبر من طاقتها. فهوت إلى الأرض متهالكة، هوت عصا عمّتي عليها تبرّح جسدها بلا رحمة، حتى تكسّرت ضلوعها وسال لعابها مضرّجاً بالدم. تنهّدت عمّتي وهي ترى القطة ذائبة مفروشة على الأرض، كان الشرّ وما يزال يسكن وجهها حين لمحتني قابعاً أنظر لدانة مرتعداً. اقتربت مني، رفعت العصا بوجهي وقد تلطّخت بدم دانة. تمنّيت لو كان بمقدوري أن أجمع دمها نقطة نقطة، وأعيده إلى شرايينها، لكن العصا الظالمة اهتزّت في وجهي وصوت عمّتي المتوعّد:

- يا ويلك من هذه العصا. سآكل من جلدك مثل قطتك النجسة.

لا أدري كيف جرؤت. كيف استطاع صوتي المخنوق أن يغادر

حلقي، ويتأتئ بالكلمات:

– لم تفعل شيئاً. تمشي على السور.

– الصعود إلى السور معناه زيارة لأسطح الجيران. ستبتلينا قططك بباقي القطط وقذاراتها.

ابتعدت.

ما كدت أحاول أن أنط نحو دانة حتى كانت تستدير ثانية والعصا تهتز:

– يا ويلك وويلها إن شفتها على السور... فهمت؟؟

هززت لها رأسي. لم أجد مقاومة في ذلك. كانت رقبتي المرتعشة تهز الرأس بسهولة حتى يكاد يسقط ولا يرتفع. خرجت وعودي من فم تكسّر فيه الكلام.

– أمر... ك... عـ... م... تي.

تركتني بألمي. انتظرت كي لا تثنيها حركتي عن عزمها في الابتعاد فتفاجئني وأنا ألهث إلى دانة.

انتظرت. حتى غاب طرف ثوبها عن مرأى عينيَّ. عندها شحنت نفسي بقوة، قطعت المسافة التي تفصلني عن دانة، ارتميت بقربها لاهثاً، خائفاً أن تكون روحها قد فارقتها. حملتها، استسلمت ليدي، ألصقتها بصدري، قبّلتها، واسيتها، وكأني أريد أن أعتذر لها عن قسوة عمّتي، وعن ضعفي وابتعادي عنها.

رفعتُ طرف دشداشتي، مسحت ما علق بفمها من دم، وما علق بجسدها من تراب اختلط ببولها. أصدرت آهات ممزقة. ومواءً باكياً لم تستطع عيناي إلا أن تشاركها فيه.

أسرعت أحملها إلى «برمة الماء». غطست بوجهها في الماء حتى أحسّت بانتعاشة خفيفة تسري إلى جسدها المرضوض. أخذت تعطس عطسات متتالية. تلحس الماء عن ثغرها الذي سالت بقايا دمائه في ماء البرمة. أجلستها في حضني، مسحت على جسدها بحنان استسلمت له. وعيناها نحوي تبثّان امتناناً ونظرة حانية كتلك النظرة التي أهديتها إلى أبي يوم جاءت أمي».

* * *

في الليل كانت عمّته تشخر في الغرفة الملاصقة لغرفته البائسة. كان يتصوّر أن هذا الشخير تهديد له. ربما تلاحقه حتى في أحلامها. كان حين يحلم حلماً جميلاً بصحبة دانة، يخطر له السؤال إن كانت عمّته تحلم أحلاماً لطيفة، وهل حقاً تزور الأحلام الحلوة ليالي الأشرار وقساة القلوب؟

كان يحضن دانة، يداعب ذيلها، يمسح على شعرها ويحدثها بصمت وحذر، يرجوها أن تصبر. وتحتمل ألمها حتى يزول. كانت تموء بحضنه بصوت خفيض كأنها تخشى أن تسمع عمّته صوت تهامسهما وتنقض عليها بلا رحمة.

من شباك غرفته. نظر إلى الحوش المظلم. كان البيت الموحش يثير في نفسه غرائب الشعور. كان قبراً لجدّته وجدّه. ثم قبراً لأحلام أبيه وزوجاته. قبراً لأمه التي خرجت منه مظلومة. وهو الآن قبر لطفولته ومشاعره ولا يرى في عمّته غير قابض للروح. والدفّان الذي اعتاد قبر الأحلام والحب.

* * *

«آه يا حصة لو تعلمين كم كرهتُ عمّتي براءة دانة. كرهتُ سعادتي بها، قتلتها، ثم كرهتُ سعادتي وحبّي لك. فهل كثير عليها أن تقتلك؟

سيان عندي الآن. أخرج من سجني أو أبقى فيه مدى الحياة. ما الحياة من بعدك يا حصة؟ يوم ماتت دانة عشت على أمل لم أكن أدري ما هو. تصورت أن قطة أخرى ستأتيني وتعوّضني فراق دانة فجئتِ أنتِ. حملتكِ إليَّ الأيام فأدركت أنك الأمل الموعود الذي صبرت من أجله واحتملت حزني لفراق دانة. والآن... بعد رحيلك أنت. ما الذي يبقى؟ أيّ أمل؟ أيّ حرّية أبحث عنها؟ وأيّ حياة أرتضيها وعينا دانة وعيناك غابتا. وذكراهما قيود حامية تكبّل فؤادي.

إنني حتى اللحظة لا أدري كيف كان موتك. لكنني أذكر بالتفصيل الدقيق. كيف ماتت دانة وكأن الذي حدث يحدث اليوم».

* * *

لم تكن الليلة كباقي الليالي. بداية قدوم الشتاء. ضباب يحجب لون الليل. ثمّة نسمات باردة تتلاعب بأبواب الحجرات وأوراق الحوش المتناثرة. تخترق البرودة باب الغرفة. حين مست ضلوعه التفت نحو دانة. لمح عينيها الجميلتين مفتوحتين نصف انفتاحة. مسح عليها، ناغاها. دسّها بين ساقيه.

«اندسّي يا حلوتي تدفئك جواربي. وإن جعت موئي بصوتك الناعم. سأخرج رغم البرد وآتيك بالأكل».

في تلك الليلة الباردة كان الحدث.

نام ودانة بين ساقيه. أفاق من الغفوة إثر انصفاق باب من الأبواب.

تحرّك فلم تصطدم قدماه بجسد دانة. هلع. امتدت كفّه. أطال فتيل السراج، رفعه، استدار به يبحث عنها في أرجاء الغرفة. لم يجد لها أثراً، تزايدت ضربات قلبه، تساءل في داخله «أين ذهبت؟ هل عافته وبحثت عن مكان أكثر دفئاً؟ أم هل تسللت لغرفة عمّته التي لا يفصله عنها غير باب قرضت الفئران نصف قاعدته».

حين فاجأه الخاطر عصف به الخوف. لم يشأ أن يدنو من الباب الفاصل. الباب الذي جفّت مفاصله فصار يصدر صريراً مزعجاً يسمعه في بعض الليالي حين تفتحه عمّته لتتأكد من نومه. أو ربما لتتأكد أنه لم يحلم ويسافر بحنينه إلى وجه أمه.

أسرع إلى النافذة. فتحها. لفحه البرد والظلام. خاف على دانة. سار على أطراف أصابعه خشية أن تثير خطوته الصحو في عين عمته. فتح الباب. خرج والسراج الواهن بيده سار في سكون الحوش، الظلام يرين على كل شيء، حتى القمر تلك الليلة تخبّأ وراء غيمة فضيّة.

وقف... تجوّلت عيناه في زوايا – اللوالين – وعلى حواف البركة وخياش الفحم المتكدّسة أمام باب المطبخ. جنّد كل أحاسيسه، ركّزها في أذنيه، انتظر أن يسمعها.

تناهى إليه مواؤها المتقطع الأشبه بالتنهيد. مشى باتجاه مصدر الصوت وحين اقترب فرك عينيه ليتأكد من أن التي أمامه هي دانة.

كانت مستلقية على بطنها. مستسلمة بجسدها لهرٍّ أسود. لم تعبأ بوجوده. في وجهها شبه إغماء. اقترب أكثر. لم تتحرك. انبطح على بطنه. أراح السراج بجانبه. وأخذ يراقب المشهد.

عينا دانة تشرقان حتى زاوية قلبه. أخذ يتأملها. أثاره المنظر. دغدغ أعطافه، بعث إلى جسده رعشة عجيبة رغم سنواته العشر تمنّى لحظتها لو كان هراً يعانق دانة.

كانت الحركة المتناغمة بين الهرّ ودانة تثير فضوله. والنشوة التي تنتقل منهما إليه تُخرس كل صوت حوله. لكن الخطوة التي لا يخطئها شقّت الصمت والسكون صرخ صوت عمّته فجأة:

– شنو قاعد تسَوِّي؟؟

جفل... ظلّ منبطحاً مكانه لا يقوى على الحركة. جفلت دانة التي التمع الخوف في عينيها، لكنها ظلت غارقة في نشوة استسلامها للهرّ الذي يواصل حركته المثيرة.

ذلك التمازج الغريب الذي أبقى دانة ساكنة رغم صرخة عمّته حرّك الأسئلة رغم الخوف الذي شلَّ حركته.

مـدَّت عمّتـه يدهـا، سحبته، رفعتـه عن الأرض ثـم حذفته إلى مكانـه، واستدارت لدانـة تهـش الهـرّ عنها لكنه لم يبال. ثار غضبها. مدَّت يدها. أمسكت بهما شدّتهما بعنف كلاً بيد فانفصلا. شيء ما تطاير حتى وجهه الرابض على الأرض. فاحت رائحة كما «الطّلع» في موسمه. التهبت نار فؤاده في اللحظة التي أطفأت عمّته نار دانة.

داهمـه شـعور حاقـد. تمنّى لو كان رجـلاً يملك القوة فيكون بمقـدوره أن يفصـل عنـق عمّتـه عـن جسـدها. لكنهـا كانـت دائمـاً

الأقـوى. بعـد أن حذفـت دانـة والهـر، التفتـت إليه، مـدّت أصابعها دون رحمة إلى أذنيه. ضغطتهما حتى كاد يتهاوى من ألمه. جرّته إلى غرفته. وقبل أن يصدر كلمة كانت كفّها تنهال عليه. لم يكن قادراً على مقاومة حقدها وشرها رغم أن حريقاً يشب بداخله ويستعر.

لـم تغـادره حتـى تأكـدت أنـه ابتلـع دموعه. وابتلـع معها متعة اللحظة التي شاهدها.

لـم ينـم تلـك الليلـة. مشـهد دانـة والهرّ معاً يوقظ شـيئاً غريباً يتلألأ بداخله.

حيـن أفاضـت الشـمس ثوبهـا الذهبيّ علـى الحوش. فزع إلى المكان الذي كانت فيه دانة مع الهرّ. تلفّت. بحث عنها، لم يجدها. فكّـر أن يخـرج إلـى الشـارع ليبحـث عنهـا. لكنه مـا كاد حتى لعلع صوت عمته:

– وين رايح يا ولد؟

تخشّب لسانه، اقتربت منه متوعّدة:

– لو رجعت تلك القطة الوسخة. سأقتلها.

لمـح مخالبهـا أمـام عينيـه تكبـر. تكبر. تصير سـكاكين تزجّ به إلى حفرة عميقة.

* * *

«هل سمعت دانة ذلك الوعيد؟ هل قصدت أن تهجرني وتلوعَ قلبي ولهاً وخوفاً عليهـا؟ كيف طاوعتها نفسـها؟ هل كان الخوف أكبر من حبها لي؟ هل كانت تحدس بأنها لو عادت فستلقى عقاباً يؤلمني ففضّلت البعد والجفاء؟

إيه يا حصة، لو تعلمين كم عذّبني فراقها. ولو كنت أعلم أن عودتها هي نهاية عمرها لما تمنّيت أبداً أن تعود. كان حتفها ينتظرها. وشتان ما بين موتكما.

في لحظة موتكِ عانقتكِ، ودعتك، لكن موتها كان بعيداً... بعيداً.

امتدَّ شوقي لدانة. لكل شيء فيها. لشواربها. لسانها الذي تلعق به أطراف أصابعي لذيلها الذي تهزّه طرباً كلما لمحتني.

كنت كل ليلة أحلم أنها عادت. وحين يتبخّر الحلم أبحث عنها في النهار. أنتظر وأصبر لكنها لا تعود. لم أفقد الأمل. كنت أدري أنها تحبني. تشتاقني وأنها لا بد عائدة رغم الخوف واحتمال الشرّ.

كيف عادت؟

كيف جاءت ذلك اليوم؟ وقفت بجسدها الجميل فوق حافة السّور. وعكست الشمس خيالها على الأرض أمامي. لم أصدق. رفعتُ إليها وجهي، أسرعتُ. فتحتُ لها ذراعيّ فألقت بنفسها لاهثة بينهما. وكأنها ترتمي على فراش من القطن.

شددتها إلى صدري. فماءت متألمة. شعرت أن وزنها ازداد. داعبت جسدها، تلمّسته برفق، فوجئت بانتفاخ في بطنها. ربتُّ عليه بلطف. فرحت. كدت أضيع في فرحتي لولا أن تنبّهت أنني أعيش في بيت تسكنه عمّتي. أسرعت إلى غرفتي. أخفيت دانة في فراشي وجلست أراقبها وعينيّ لا تشبع منها. حتى بدأت بالتثاؤب وحين أغفت، خرجت إلى الحوش كي لا تلحظ عمّتي غيابي.

يومان.

نجحت أن أخفي دانة داخل خزانتي الصغيرة. وقد ساعدتني بركونها. وعدم موائها. كنت أجلب لها الأكل بحذر. واصطدت لها عصفوراً التهمته بشهية وتلمّظت بدمه. وفي الليل حين أتأكد من نوم عمّتي. أدسّها بجانبي في الفراش. فتدسّ أنفها في مخدتي وكأنها تخشى أن تسمع عمّتي أنفاسها.

هل كنت قادراً أن أخفي شيئاً عن عمّتي؟

في اليوم الثالث غلبني النوم. لم أحملها إلى الخزانة فظلت بقربي في الفراش. وحين رأتها عمّتي التي جاءت لتوقظني. صرخت...

تطاير الشرر من عينيها. همزت دانة لتهرب. لكن ثقل جسدها جعلها تتوانى. فسقطت بيد عمّتي.

أمسكتْ بذيلها. تدلّى جسدها كذبيحة. أشارت إلى بطنها. نظرت إليَّ غاضبة:

– شوف. تَرسَ الهرُّ الأجرب بطنها. لو خلّيناها. سيتترسُ البيت بعيالها.

تحركتْ عمّتي ودانة لا تزال تتدلّى من يدها.

مرتجفاً تبعتها. توسلتها:

– عمّتي: «الله يخليك» اتركيها.

نهرتني:

– اخرس يا كلب. هذي القطة بلوة ابتلينا بها.

أسرعت بخطوها. وأنا وراءها أبكي. أسترحمها. أتوسّلها. لكن

توسّـلي وطلبـي الرحمـة لـم يجـد طريقـاً إلى قلبهـا الذي لا يمكن أن يعرف الرحمة. لقد حرمتني من أمي. ألقت بها وبملابسها إلى الشـارع. والآن تريـد أن تحرمنـي مـن دانـة ولـم أكن أدري ما الذي ينتظر المسكينة.

حين ابتعد صوت دانة غامت بعينيه سحابة سوداء. حاول أن ينطق، أن يقف. لكنه سقط فاقداً الوعي.

كم من الوقت مضى، يوم؟ يومان؟ أم هي مجرّد ساعات مرّت كدهر ثقيل؟ حين أفاق شعر نفسه مبللاً. كان قد تبوّل على نفسه. تلفّت حولـه مفزوعـاً متصـوراً أن مـا حـدث كان مجرد حلم كريه. لكن عينيّ عمّته الناريتين كانتا تفحّان في وجهه.

تنفّس سؤاله بطيئاً:

- عمّتي. وين دانة؟؟

جاءه صوتها كاللطمة:

- راحت، خلاص ارتحنا منها.

- واه... واه... عمّتي.

ابتسـمت ابتسـامة ماكـرة. أدرك أن الحلـم حقيقـة، صـرخ مفجوعاً:

- «قذفتها في الأدب[1]».

لـم ينتظـر إجابـة. وثـب. جسـده يفـور بالحـرارة والغيـظ والحزن.

"دانـة كانـت فزعـة. تتلـوى تحـاول أن تتخلـص مـن يد عمّتي.

(1) الأدب: بيت الخلاء.

لكنها فشلت. وأنا ألاحق فزعها باكياً. ذليلاً. وصرخاتي التي تشق قلب الصخر ضاعت. وعمّتي تسرع نحو «الأدب».

خطر لي أن عمّتي تريد سجنها هناك حتى يفرغ انتفاخ بطنها ثم تحرمها هي الأخرى من أولادها كما حرمت أمي مني. ما كنت أتصوّر أن عقاباً شديداً غير هذا سيحلّ بقطتي. وكان الذي حدث أكبر من ظنّي.

وصلـت عمّتـي الأدب وبـلا رحمـة هـوت بدانـة إلـى الفتحـة الصغيرة.

انحشرت المسكينة في عرضها. حاولتُ القفز. صفعني المنظر. ألقيت بنفسي إلى الأرض تحت أقدام عمّتي. مددت ساعديّ لأنتشل دانة. لكن قدم عمّتي داست على يدي ثم على رأس دانة لتزجّها داخل الفتحة. فماءت المسكينة مستغيثة وعيناها تقدحان برعب عجيب.

سقطت دانة وهي تصدر صوتاً وكأنها تلعن عمّتي.

أسرع حيث دانة انبطح على بطنه. دسَّ كامل وجهه في الفتحة، تقافزت عليه الصراصير، لم يهتم، نادى والألم يمزقه:

- دانة... دانا... دا... نا...

واهناً جاءه صوتها:

ميؤ... ميؤ... ميؤ...

كرّر نداءه. فكرّرت المواء. لم يكن يأبه برائحة المرحاض التي نفثت كل عفونتهـا إلـى صـدره. كان فقـط يحسّ بمواء دانة يخترق رئتيه خطأً مستقيماً يتوسّل. يسترحم. النداء يبكيه. يرعشه. يحثه أن يفعل أي شيء ليخلّصها من سجنها الرهيب.

ناداها بصوت شحنه بالإصرار:

- دانة. «لا تخافي». «ألحين أطَلّعِكْ».

ماءت. بصوت أعلى كأنها تفرح بوعده. وتشجعه عليه.

انفلت إلى الحوش.

إلى بركة الماء. نزع حبل الدلو. وعاد مسرعاً به إلى حيث دانة تنتظر الخلاص. أسقط الحبل في الفتحة حاول أن يتابعه بعينيه لكن الظلام كان دامساً. أخذ يحركه ويهزه. آملاً أن تلمحه عيناها اللتان لا تشعان إلا في الظلام، فتتمسك به. يحس ثقلها. ويرفعها. لكن الحبل لا يثقل. وعينا دانة الملوثتان بالفضلات لا تلمحانه. لم ييأس. كرّر المحاولة ناداها:

- الحبل يا دانة... تعلقي به.

لكنها لم تفلح. وظل صوتها الواهن ينبئ أنها ما تزال حيّة.

مضى النهار.

انزوى في غرفته تائهاً، حزيناً، لم يأكل لقمة. كان يحسّ بمعدته ثقيلة وكأنه التهم قدور البيت كلها. كان يخشى لو أنه ابتلع لقمة سيضطر أن يقضي حاجته ودانة هناك. فكيف يحتمل؟؟

في المساء. دخلت عمته:

- قم تعشَّ.

لم يتحرّك. ظلَّ رأسه معانقاً ركبتيه. صرخت به:

- ما تسمع. قم تعشَّ.

ردّ دون أن يحرك وضعه:

- مو جوعان. مابي آكل.

لم تتركه لحزنه. اقتربت. شدّته من عنق دشداشته. رفعته وانتصبت به.

لمح أباه يقف عاجزاً عند باب الغرفة. حرّكته عمّته تؤرجحه إلى الأمام والخلف.

- تعاند.

صوته منكسراً:

- ما أشتهي يا عمّتي.

- تأكل غصبٍ عنك.

أفلت بكاءه المكتوم. حرّك حنان الأب الضعيف. اقترب منها:

- خلّيه ألحين. ياكل إذا جاع.

حاول أن يخلصه من قبضتها. لكنها أحكمتها عليه أكثر. وطالبت أباه بحدة:

- لا تتدخل. لازم ياكل.

توسّل أبوه:

- يا بنت الحلال. ارحمي الولد.

تشجّع. اقترب. خلصه من القبضة. احتضن جسده المرتعش، حاول أن يقنعه:

- لازم تاكل يا سالم.

صرخ:

- أنا شبعان. اتركوني. مابي آكل. مابي. مابي.

ارتفع صوت عمّته مهدّداً:

- إن ما كليت. أخلّي العصا تاكل من جنبك.

بصوت ضعيف أمرها أبوه:

- روحي أنت. تالي نلحقك.

ثرثرت بالسباب عليه، على القطة، وعلى أمه التي لم تنسَ أنه ولدها. خرجت. أغلق أبوه الباب. احتضنه. أجلسه. أخذ يحاول:

- يا سالم. لا تعاندها.

ألقى برأسه على الصدر الذي لا يتذوق حنانه وأعلن احتجاجه:

- ليش رمت دانة في «الأدب»؟

مسح على شعره:

- الشكوى لله. ما تعرف عمتك؟

- أريد دانة. أريدها.

- أجيب لك غيرها. بس قوم لتاكل.

أصرّ:

- ما أشتهي الزاد، «كبدي تلوع وبطني يعورني».

حضن أبوه وجهه. وما كادت شفتاه تلامسان خدّه المبلل بالدموع حتى اندلق القيء من فمه. تلوثت دشاشة أبيه الذي ابتلع قبلته. مسح وجهه، ساعده ليقوم، تاركاً المكان ملوثاً. أجلسه على فراشه. كان يتمتم «لا حول ولا قوة إلا بالله».

- نام وارتاح. يعينك الله عليها. ما باليد حيلة.

تركه وحيداً بحزنه. وخرج.

* * *

صار للأيام لون وطعم آخر.

ماتت دانة. حلمه الجميل وأنيس وحدته. لو كانت تعلم أن لحظة الميلاد التي جمعتها بالهرّ هي عناق لحظة الموت: هل كانت استسلمت للنشوة؟

ولو كانت تفهم كراهية عمّته لعناق الأجساد الدافئة. هل كانت سلّمت جسدها للحبّ الزائر في تلك الليلة الباردة؟

سكن الحزن قلبه، أيامه ولياليه منذ أن فارقته دانة. لم يبقَ في فؤاده غير حقد دفين لعمّته لا يجرؤ أن يفجره. زهد في اللعب، والنوم، والأكل. وحين يضطر لقضاء حاجته كان لا يقترب من بيت الخلاء. كان يتصوّر أن دانة الميتة هناك سوف تتعرّف على رائحته، ستعاتبه، وتؤنّبه لأنه يُسقط فضلاته على وجهها الجميل. تشرّد في الشوارع يفرغ في زواياها البعيدة عن العيون أحمال بطنه. أو في السطوح المهجورة.

كره البيت. كل زاوية فيه كرهها إلا ذلك المكان الذي جمع دانة بالهر. يجلس فيه. يسترجع اللحظة التي أرعشته. تحوم روحه حزينة تتذكر. وتشتاق ثم تفرّ منه إلى ذلك المكان الذي صار قبراً لوجه دانة.

* * *

«كان وجه دانة هو الوجه الذي أحببته بعد أن غاب وجه أمي. صارت هي سلوتي، ومؤنسي، لم تكن العوض عن أمي. لكنها كانت مصدراً لفرحي. حين أسمع أنفاسها أحسّ بأنفاس أمي تدفئ وجهي. وعندما تموء أتذكّر حزاوي أمي وكلامها الحنون.

عمّتي الشريرة التي حرمتني وجه أمي. كرهت وجه دانة. حرمتني منه. ثم كرهت وجهك يا حصة. كرهت أن يسكب السلوى والحب في حياتي.

أين أنت يا حصة؟ لا تقفي. هيا. اهربي. لا تكوني خوافة مثل دانة.

عمّتي. ستصيدك وتقتلك. اهربي... يا... حصـ... ـة... آخ... آخ».



هـزّت صرختـه المكان. دوى الصوت معلناً تفجّر نوبة أخرى هرعت الممرضة. جاء الطبيب. أمر بإبرة أخرى. سرى المخدر في ذراعه. هدأ... نام وسيل دموع يُملّح وجنتيه.

حين استفاقت عيناه. دارتا في أرجاء الغرفة سريعاً ثم أغمضهما. كان يظن نفسه غاطساً في الحلم. لكنه حين أعاد فتحهما، وركّزهما على محتويات الغرفة، تأكد أنه في السرير الأبيض. يستعيد ذكرياته التي تلازمـه لحظـة بلحظـة، يتألـم، ويحـس بالاختنـاق، كأن الدنيا تحوّلت معصرة كبيرة تهرسه بين رحاها.

حاول أن يجلس. أحس ثقلاً في رأسه. استرخى. سلّط نظراته على زجاج النافذة. لمح الأفق رمادياً كئيباً. حتى النسـمة واقفة لا تحرّك ساكن شيء.

سمع حركة الباب. التفت. لمح الممرضة، اقتربت تحمل بيدها جهاز الضغط. استلّت ذراعه من تحت الشرشف. لم يقاوم. أحاطت ذراعه بلسان الجهاز. نفخت بالضاغطة ثم أرختها. كرّرت العمليّة

أكثر من مرة. حين تأكدت ابتسمت:

– الحمد لله. الضغط ممتاز.

ابتسم مشيراً إلى صدره:

– الضغط هنا.

بان الاهتمام على وجه الممرضة. اقتربت أكثر. وضعت كفّها على صدره:

– هل تشعر بألم؟

– لا... فقط أحس بثقل كبير على صدري.

– سيأتي الطبيب الآن ويطمئنك.

سحبت كفّه. ركّزت إصبعيها على رسغه. وأكدت:

– والنبض أيضاً ممتاز.

– ورأسي؟؟

– هل تشعر بصداع؟

– شيء أكثر من الصداع.

– إذا جاء الطبيب. قل له. وسيعطيك العلاج.

أشاح بوجهه وتنهّد:

– الطبيب لن يزيل علّتي.

ربتت على كتفه:

– لا تفقد الأمل. تصبّر.

دخل الطبيب. حين لاحظ هدوءه في السرير أحس ارتياحاً. بادره:

– ها يا سالم. كيف الحال؟

أجاب سالم:

– لا أريد أن أبقى هنا.

– أنت تعبان. تحتاج للعلاج. سنساعدك.

– لا أريد مساعدة. أعيدوني إلى السجن.

فَرَدَ الطبيب ذراعيه في الغرفة:

– هنا ترتاح أكثر.

اعترض صوته.

– تعطوني إبراً. أصير أحلم. تلاحقني كل الوجوه.

بلطف جاء أمر الطبيب:

– انسَ كل الوجوه. نريدك فقط أن تتذكّر وجه حصّة.

اهتاج:

– الحقوها... خلّوها تهرب.

– ممّن تهرب، من الحبل؟ أو منك؟

– لم يكن حبلي. والله. والله.

استنفر الطبيب ليصطاد اللحظة. مال إليه:

– حبل مَن إذن؟

– حبل عمّتي. أنا ما قتلت حصة. صدقوني.

انخرط في البكاء.

نظر إلى الطبيب بعينين مغشاتين بالدموع. جلس الطبيب على طرف السرير امتدّت يده. ضغطت على رأسه:

– هل تشعر بألم؟

حرّك رأسه في الاتجاهين:

– أحس ثقلاً.

ترك الطبيب رأسه. نزل إلى ركبتيه. أحسهما ترتجفان. ضغط عليهما برفق:

– هدئ نفسك يا سالم. إذا قلت لنا كل شيء سترتاح. ويرتاح رأسك.

– ماذا أقول؟

ارتاح الطبيب لتجاوبه. قال بحنان:

– شـوف يا سـالم. ذاكرة الشـاهد. لازم ما تخونه. تذكّر كل شيء.

– أنا بس شفت حصة. والحبل حول رقبتها.

حفّزه الطبيب:

– تذكّر قبل ما تشوفها ميّتة. شنو صار؟ تذكّر.

توسّل:

– ما أقدر. رغم أن كل الوجوه تلاحقني.

– وجوه مَن؟؟

– دانة، أبي الخوّاف. عمّتي. أمي. ووجه حصّة.

– كنت تحبها؟؟

– وايد. وايد.

لاطفه الطبيب:

– شوّقتني يا سالم أن أعرف عنها كل شيء.

– صعب. صعب. وجهها الميت يعذبني.

– حاول يا سالم.

– أرجوك. اتركني لوحدي.

ساومه الطبيب:

– إن تركتك هل تتذكّر وتحكي لي كل شيء؟

– أحاول. أحاول.

– هل أعتبر هذا وعداً؟

أومأ برأسه. خرجت الكلمة صادقة:

– أعدك.

* * *

ماذا يقول؟؟

ذاكرته التي أُتخمت منذ الطفولة بموائد الأحداث تكاد تكون خاوية. لقد مرّت السنوات سلسلة من الأحلام الدامية، كان مجرّد شيء تحرّكه عمّته كما تشاء. كلما أشرق له حلم قتلته. وكلما أضاء فجر بأعماقه أطفأته. وكلما أحسّت ببادرة شجاعة تتأهّب سحقتها في مهدها.

حرمته أمه. يتّمته منها ولم يكن بعد نهل من حنانها إلا القليل. حرمته من دانة التي رافقت يتمه وآنسته. ثم صكّت أبواب الحياة في وجهه عندما حرمته من المدرسة. الملاذ الذي رفّه عن نفسه. والمكان الذي حمى نصف أيامه من وجه عمّته وشرها وانفجارات غضبها التي لا تهدأ. كل الجوع الذي كان يحسه في البيت أشبعته المدرسة. عطف عليه المدرسون، أحبّوا ذكاءه. اهتمّوا به. شجّعوه فصار يلتهم الدروس والمعرفة. أحبّ كل الأيام. وكره يوم الجمعة الذي تغلق المدرسة فيه أبوابها وينفتح أمامه باب عمّته مثل جهنم الحمراء.

كره شهور العطل وخاصّة بعد أن فقد دانة. وحدها كانت تسليه. تقصّر الأيام والشهور، وحين انتهت معها سلوته. بحث عن منفذ آخر. وجد في مكتبة «الفريج»[1] ضالته. كان يجلس ليقرأ القصص. وحين لا يستطيع إكمال كتاب يشفق عليه صاحب المكتبة. يعيره إياه. فيدسّه تحت دشداشته خشية أن تلمحه عيون عمّته وتمزّقه.

صارت القراءة متعته. وسفره الدائم بين الكتب فتح مداركه، علّمه وأوقد ذهنه، انشغل بها. وخفّفت عنه مصائب عمّته التي تلاحقه. صار أكثر احتمالاً، وصبراً، صارت المكتبة جنته والمدرسة بستانه الأخضر.

* * *

لم تكتمل سعادته في المدرسة، ثماني سنوات غرف من بحرها وأفرغ حزنه فيها. لكن عمّته التي شعرت به يتغيّر.. وتتكوّن بداخله روح جديدة عزَّ عليها ذلك، فسلطت سيفها. أعلنت قرارها لأبيه. وهو واقف بينهما بين الأمل واليأس.

– لازم يترك المدرسة.

ارتعش. وارتعش صوت أبيه.

– ليش؟

– المدرسة ستعلمه – الطبائع الشينة –.

سخر أبوه منها:

– المدرسة تؤدبه وتعلّمه وباكر يأخذ الشهادات.

(1) الفريج: الحيّ الصغير.

- وماذا نستفيد من شهاداته؟
تحمّس صوت أبيه:
- يشتغل. يكدّ علينا وعلى روحه.
رفضت عمته:
- ما نحتاج مكدّته.
ارتفع صوت أبيه:
- ماذا يفعل بالبيت؟ يقعد فيه مثل الحريم؟
غمره الفرح وأبوه يدافع عن حقّه. لكن عمّته سرعان ما وجدت الحل:
- يساعدك في الدّكان.
شوّح أبوه بذراعه:
- لا أحتاجه يساعدني. ما زلت بعافيتي.
بحثت عن مخرج آخر:
- باكر إذا أخذ الشهادات يكبر رأسه علينا.
وغرست إصبعها في وجه أبيه:
- عليك إنت بالذات.
راضياً ردَّ أبوه:
- خل يكبر راسه. المهم يتعلم.
تراكم غضب في صوت عمته:
- شوف عاد. يكفيه ما تعلّم. ما يروح يعني ما يروح.
لأول مرة يدخل أبوه في عراك مع عمته. كان بداخله ينتصر لأبيه ويتمنّى أن ينتصر على عمته. ويظل باب المدرسة مفتوحاً له. وتظل الكتب مورده الذي يسقيه. ويظل مع رفاق المدرسة الذين

أحبهم واعتاد عليهم ونفّس عن آلامه معهم.

لكن الشجار انتهى بخذلان أبيه وخذلانه. حاول أن يشتمها في سرِّه لكنه تصوّر أنها سوف تسمع شتيمته وتنقض عليه. نظر إلى أبيه. شعر أنه يكرهه في تلك اللحظة كما يكره عمته. وحين اقترب منه وربّت على كتفه متصوراً أنه يواسيه. شعر وكأنه يدقه نحو الأرض. فتهاوت روحه قبل أن يصرخ أو يتوسل.

* * *

«تركت المدرسة. ودّعتها كما ودّعت حضن أمي. ووجه دانة. لكنني بداخلي قرّرت أن أتحداها. ساعدني أبي في ذلك وكأنه يريد أن يكفّر عن ذنبه وتنازله. سمح لي أن أترك الدكان، أذهب إلى رفاقي. أتعلم منهم ما يتعلمونه كل يوم. وأواصل علاقتي بالمكتبة. أستعير الكتب. أجلس في الدكان أقرأ. وأحكي لأبي بعض الحكايات والطرائف والمعلومات.

فرحت عمّتي باستسلامي. حين اقتربت مني في اليوم التالي لقرارها، حاولت أن تبدو ودوداً. قالت:

- شوف يا سالم. أنا أريد مصلحتك. أريدك أن تتعلم تجارة أبيك.

أومأتُ برأسي كما الكلب الذليل.

قلت في نفسي: أكسب بعض الرضا. وأفعل ما أريد. لم أعد حتى أضيق من طلباتها والمشاوير المرهقة التي تكلفني بها، بل صرت أسعى أن تطلب، كنت أنا الذي يبادرها:

- عمّتي هل تريدين شيئاً من السوق؟

تتطلع إلى وجهي و«تكُمّ» عليَّ:

– «مالت عليك». شنو هالأدب؟

لكنها استراحت لخنوعي الظاهر. صارت تكلفني. لم تتردّد أن ترسلني إلى بيت الخياطة لأحضر أثوابها. أو بيت «الدلاّلة» لأحمل لها حاجات طلبتها منها. كانت هذه الأوقات تساعدني أن اسرق من الزمن، أبتعد عن البيت لأجتمع بزملائي. آخذ الدروس بعجالة. وأفهم بسرعة شرحهم. أحلّ المسائل الحسابية. وأكتب موضوعات الإنشاء التي يقرّرها المدرّسون عليهم.

كان أهم ما كتبته حكايتي مع دانة التي أبكت بعض زملائي. ونقلوا لي إعجاب المدرّسين بها.

احتفظت بالقصة. ورسمت عليها صورة دانة ونقشت اسمها بخط كبير. وكنت أخفي الورقات في مكان أمين خشية أن تذبحها عمّتي كما ذبحت دانة».

* * *

ظنّت عمّته أنه استسلم لقرارها الظالم. فرح أنه أشاع الراحة بداخلها وخفّ شرها عنه. لكنها لم تكن تدري بالخط المستقيم الذي بدأ يشق القنوات داخل رأسه. ويقوّم أفكاره. ويجعله يترفّع عن كل عذاباته، عن حقده، وكراهيته لها. قرأ الروايات. عرف كم تعذّب أبطالها وهم أطفال مثله. وعانوا الظلم والغدر والقهر. وكيف استطاعوا أن يتغلبوا على آلامهم ويصبحوا عظماء. تغيّر سلوكه في البيت. كبرت بداخله الثقة. تجاوز كل أفعال عمته. ظهرت عليه بوادر قوّة. أفزعت عمته. شعرت بأن الغصن الضعيف الذي تحاول

كسره بدأ ينتصب ويقوى. ويخضرّ. طفح شبابه أمام عينيها. أفرحت هذه الرجولة قلب أبيه. وكرهتها العمة التي سعت لوأدها.

كان يلحظ نظرات عمته. يحسّها تحرق ضلوعه. وبدأ يدرك أن شيئاً غريباً يُعابث رأسها الشرير. صارح أباه. وحين كرّر خوفه ضحك أبوه وقال:

– من كثر ما عذّبتك تتصوّر أشياء كثيرة.

لكن تصوّراته لم تكن خاطئة. ذات ليلة تناهى له حوار عمّته وأبيه وهما يتناولان العشاء في الليوان. هو خلف دريشة غرفته يقرأ كتاباً. ألقاه جانباً واستمع.

– ترى الولد كبر.

قالت عمته. فكاد أبوه أن يغص بضحكته الهازئة:

– خير يعني: نذبحه خروفاً للعيد؟

نهرته:

– «لا تتظنّز»[1].

– كلامك لا معنى له. خير يا الله. الولد كبر. ونفعه يكبر، لماذا يزعجك؟

– أخاف أن تتفتح عيونه على ما يضره.

– أوضحي كلامك.

– تزوّجه.

صدمته الكلمة. اشتعل جسده. انتظر أن يسمع ردّ أبيه ليخمد ناره:

(1) تتظنّز: تسخر.

- ما زال صغيراً. لا أريد أن أشقيه بالزواج.

خبطت عمّته على صدرها:

- صغير؟ أنت تزوجت في عمره. والزواج يحميه.

نفض أبوه اللقمة من كفه:

- يحميه من «شنو؟».

- من الزلل. هل تدري من يعاشر من هالصبيان؟

أكّد لها أبوه:

- سالم ولد زين. ما يترك صلاته ولا صيامه.

لانَ صوتها بلؤم لا يخفى:

- يا خوي. الزواج ستر له. خلينا نفرح فيه.

- وهل ستقبلين امرأة في هذا البيت؟

- إيه. حصة أقبلها.

- حصة؟ أيّ حصة؟

- بنت الحاج إبراهيم. حليوة. وعاقلة. صغيرة وأربيها على إيدي.

- والله حالة. جهّزت العروس. وتنوي بعد كسر شوكتها.

- إن صارت طيّبة وخدوم. أحطها في عيني. وإن طالت أظافرها...

قاطعها أبوه:

- تقصدين الأصابع كلها. يا بنت الحلال. لا تربطي حبالنا بالناس الأجاويد، بنات الناس «مو لعبة». ويمكن ما يوافقون.

- وليش ما يوافقون؟

أثخن أبوه من نبرة صوته وهو يذكرها:

- يعرفون شرّك.

- أنت ما عليك. أترك الأمر لي.

واستكان أبوه.

* * *

«لم أذق النوم تلك الليلة. كلمات عمّتي مثل الدود تدبّ فوق جسدي. تهرش عقلي بالحيرة وأنا أفكر بتلك «الحصّة». الروح التي ستقدّمها إليَّ عمّتي ثم تزهقها بالظلم والقسوة. هل سأقدر على حمايتها وأمانها؟ وهل سأمنحها الحب؟؟ آه... الحب. الذي مسّتني رعشاته وأنا أقرأ الروايات. ويخفق قلبي مع خفوق قلوب المحبّين. أتألم حين يتألمون. أبكي حين يبكون. افرح حين ينتصرون ويتزوجون.

كثيراً فكرت بالحب. بعد كل قراءة كان يغازلني شوق للقاء - أنثى - عطر جسدها، ورحيق ثغرها الذي صوّره الرواة وفاح يدغدغني، فأتمنّى... ولا أجرؤ أن أبحث عن امرأة.

عمّتي اليوم تقدّم لي العطر والرعشة. هل ستهديني «حصّة» ثم تخلعها من أرضي كما خلعت أمي. وقطتي دانة؟

اعترتني لهفة لمعانقة حصّة التي أجهلها. وتراءت لي صورة لقاء دانة بالهرّ. هل سأكون الهرّ وتكون حصّة دانتي؟

لفحتني رياح الخوف. انتصبت أمامي لحظة انفصال دانة عن الهرّ. طوّحتني الذكرى في بئر الليل المظلم. جلدتني الأفكار والأحلام المزعجة التي تناوبت عليَّ.

ووجه عمّتي يقفز مع كل حلم. لقد قررت. ورضخ أبي. وعليَّ أن أرضخ لقرارها وأقبل هديّتها التي لا أعرف مصيري معها.

انكمشت على نفسي. أرهقني التفكير. لم أجرؤ على سؤال أبي الذي لا يعرف أنني سمعت حواره مع عمّتي. انتظرت أن يبادر، أن يصارحني لكن صمته طال حتى ألفت الصمت بانتظار أن يبدأ. أو تبدأ عمّتي».

* * *

نادته ذلك النهار. لمح شيئاً يطلّ من عينيها. مزيج من الحدّة والتهديد المبطّن.

أفعمت صوتها بحنان مصطنع لم يمسّ مشاعره:

– تعال يا سالم. اجلس.

انتظر رعوداً. وقد تكون العاصفة التي لا يقوى على صدّها:

– نعم يا عمّتي؟

ابتسمت. كانت المرة الأولى التي يلتقط فيها ابتسامة من وجهها. بادرته:

– لقد صرت رجلاً.

رجل!!

دوت الكلمة في رأسه. رجل!! كيف يكون رجلاً وهناك من يخطّط له شؤون حياته. ويتّخذ عنه القرارات؟

ابتلع الكلمة. أجاب بضعف:

– نعم. صرتُ رجلاً.

– والرجل. لازم يتزوج.

اعتراه الخجل. خفض رأسه. وصوت عمته:

– خطبتُ لك – حصّة –.

– يا عمّتي...

قاطعته:

– اسمع يا سالم. حصّة بنت حلوة. ربّة بيت. بنت حلال. أنا اخترتها لك.

هزئ بداخله. كيف لهذه الشريرة أن تختار الشيء الجميل؟ هل يرفض؟ هل يصرخ في وجهها ويلعن اختيارها؟ أم هل يغامر ويقبل؟ لعلّ شمساً جديدة تشرق في حياته رغم جهله بها. هل يُذيب أحلاماً ومشاعر أحسّها وهو يقرأ عن الحب والزواج. والمتعة والدفء؟

شعر أنه بحاجة لنسف البلادة التي تخيّم على نفسه. والكآبة التي تسيطر على بيت يفتقد النور. طمح في لحظة إلى التغيير وقد فاحت رائحة الأنثى حتى عمقه.

لطّف كلماته:

– «شورتك وهداية الله» يا عمّتي.

شاع الفرح في وجهها. حصدت لذّة انتصارها عليه وعلى أبيه:

– بس لي طلب عندك. لا تمر ناحية بيتهم. حتى لا يظنون بك ظنوناً سيئة.

وجد الطلب سهلاً لا يكلفه العناء. ولم يكن ذلك يخطر بباله. قبل أن يوافقها. أردفت طلبها بطلب آخر:

– أريدك أن تأكل زين. وتقوّي نفسك للزواج.

هل يحتاج الزواج إلى قوّة؟ وهل كان الهرّ يقوّي نفسه قبل أن يعانق دانة ويبذر بذرته التي أودت بحياتها؟

لم تكن لحظة التقاء الهرّ بدانة تفارقه. كانت بذكراها تثير قشعريرة عجيبة في أوصاله. مزيج من الدهشة، واللذّة، لا تلبث أن تفرَّ حين تداهمه اللحظة الأخرى المرعبة. اللحظة التي فصلت يد عمّته دانة عن الهرّ.

كيف ستكون لحظته هو؟ دنيا جديدة سيدخلها. يجهل حدودها وعمقها، ليس لديه تجربة واحدة. وكل ما قرأه لا يزوّده بالمعرفة التامة. وليس بديلاً عن تجربة فعلية. كان يحلم فقط. يزوره وجه من وجوه بطلات القصص الجميلات يداعب روحه. يلاصق جسده. ينثر رذاذاً يبرّد على قلبه ويشعل فتائل غريبة. هل يلجأ لبعض زملائه؟ لصاحب المكتبة؟ أم يلجأ لأبيه الذي تزوج ثلاث مرّات وعرف طعم المرأة.

أياماً ولياليَ أضناه التفكير. فقرّر أن يختلي بأبيه بعيداً عن سمع عمته.

حديث أبيه الودود. نصائحه الرقيقة. شرحه وعذوبة الخوض في تفاصيل مبهجة أرعشته. أشرعت أبواب الحلم الجميل لأيامه المقبلة. لكن هذا كله لم يزحزح الخوف الرابض كصخرة ثقيلة فوق صدره. لم تغب عنه الوجوه التي عذبتها عمّته وأدمتها. وجه أمه. وجه دانة. كان خوفه يتضاعف كلما فكّر بالوجه الجديد القادم.

* * *

«وجه حصّة.

جاء يطفح بالحب. يبدّد السحائب السوداء التي زرعتها عمّتي في سماء البيت. أستعيده الآن. تأتيني أنسام الليلة الأولى وأنا ألملم في رأسي ما قاله لي أبي.

أتذكر تماماً كيف بدأت.

كشفت عنها العباءة. انسدلت عن شعر يفوح بالبخّور. وحين رفعت «البوشية» انبرى لي وجه كالبدر. لم أصدق. هل يُعقل أن تهديني عمّتي قمراً؟! كنت أتصوّر أنني سألقى وجهاً بشعاً، جامداً، كوجهها. لكن الوجه الذي رأيت جعلني أشكّ أن عمّتي رأته قبلي. وجه جعلني أغفر بشاعات كثيرة لعمّتي. حضنت الوجه، تأملت عينيها الرائعتين. خجلتْ مني. أسبلتْ جفنيها فانفرشت رموشها تكاد أن تصل إلى خدّين مثل الفضّة.

لامستُ بأطراف أصابعي كل الوجه. أردت أن أتأكد أن هذا الوجه لي وحدي، مررتُ عليه مروراً ناعماً أخشى أن أجرح نعومته. خفت على ثغرها المستدير مثل العنبة المستوية أن ينعصر ويتألم.

كانت مستسلمة، مستعذبة حناني، سعيدة بانبهاري. اقتربت بوجهي لألامس المرآة الصافية. فاحت رائحة عذبة ذكّرتني برائحة أمي. ورائحة دانة. رائحة شقّت السكون كله. شعور غريب طاغ خشيت أن يتفجر ويؤذيها. ينفّرها مني وأنا الذي كنت وديعاً مع دانة. احتضنتها. دسست رأسي كله في صدرها. في لحظة نسيت كلّ ما قرأت. وكل ما علّمني إياه أبي».

استوى ظمأه بعد الجفاف. صار كهبّة «السّموم». حصّة أمامه قلعة محصّنة. انتظرتْ حتى يأتي فارسها. هو الآن الفارس. وهي القلعة التي تثير فضوله وشوقه الرابض.

قفز إلى السور.

صورة دانة تقفز.

تخطّى المسافات والفواصل برفق.

دانة تقطع المسافات.

هرع إلى الباب الموصد. حصّة مستسلمة.

هو الهرّ. تدفعه لحظة التمازج بين دانة والهر يريد أن ينطق.

حاول دفع الباب العذريّ. صرخ من حوله كل شيء. أحسّ يداً قوية تشدّه. تعطله. تفصله. وجهها يبتعد عن وجهه. ينتصب وجه عمته. يشرع أنيابه. يرى مخالبها تتّجه إليه. تنغرز في لحمه تنهار قواه. تدور به الأرض. تطوّحه الريح وتفحُّ سموماً حارقة. حاول أن يتحدّى. ويطلق الأشرعة في وجه الريح الغاضبة. مثل بحار تاه في أمواج الرغبة. تلاحقه سيوف، وأنياب تقذفه نحو الصخور، يرتطم جسده، يسقط واهناً متعرّقاً لاهثاً، ينظر إلى وجه حصّة، مبللاً حائراً. مسّته بكفها. أحسّ ارتعاشتها تنفضه وتعذبه. من عينيها أطلّ التوسّل والنداء. لكنه نداء لا يمنحه القوة ولا يحرّك ساكنه.

غلبه ضعفه. أثقلت جسده رخاوة وذبل شوقه. غابت كل الأشياء عن عينيه إلا وجه عمّته ينقض على الوله والرغبة يفسدهما. ويدفنهما.

حزيناً انطوى على نفسه. نظر إلى وجه حصة. لم يكن هو

الذي يراه. كان وجه دانة يبكي وكأنه قد انفصل للتّو عن الهرّ.

مضت الليلة الأولى.

وجه عمّته في الصباح بلا نطق يستفسر عن – العلامة – وصمته الذليل يواجهها.

ليلتان...

ثلاث...

كرّر المحاولة. كانت رغبات جسده تجرّه كل ليلة إلى موت جديد. كفَّ عن المحاولة آملاً أن تقوى حبائل شوقه ليتسلّقها بجدارة تليق بسور القلعة. يدخلها آمناً. لكن الريح تعاود عصفها وتطوّحه. فيرتمي وحصّة لابدة بجانبه بانتظار المطر. والمطر لا يأتي. تحسّه يهمس بوعد جديد.

مرت أسابيع.

صار يهرب من وجه أبيه. من سؤاله النابت كخنجر. من وجه عمّته الشامت الغضوب. لكنه لم يكن قادراً على الهرب من وجه حصّة الذي بدأ يتغيّر، تساقطت زهوره. وهن جسدها تحت دبيب جسده العاجز. لكنها تصبر، تعطف عليه، وحين يعدها بغيث جديد تصدّق الوعد، وتلهمه الأمل، فتدب إليه القوّة، يُقبل على أرضها، يتمرغ على أعشابها، يخوّض بطين التربة الندي، يرفع الفأس، لكنه يهوي قبل أن يصل القرار الذي يريد.

دموع حصّة تعذّبه. آنات صدرها تشقّ صدره. بمرور الأيام صارت كالعود المعطوب. كالنخلة العارية. لكنها ظلّت كبيرة بصبرها وصمتها، تشدّ أزره. تحميه من ضعفه، تساعده بطلبها إليه:

- لا تستعجل.

استسلم لدعوتها وارتاح. كانت كل ليلة تُطيح برأسها على صدره. فتتفرّع في قلبه الأغصان، ترتمي على جسده زهرة ترتوي من لهفه وحبّه، ترتضي به غيمة تهطل خيرها عند نافذة القلعة فينتعش الربيع. تصير الليالي مبهجة. حصّة دانته التي يحتويها بين ذراعيه. يدفنها بثيابه. يسليها بالأحاديث والحكايات ويسمعها الشعر الذي حفظه. كان جسده يتوق. ويهتاج وجسد حصّة يبوح بعطر الترقّب. والفأس الذي لا يقوى على اختراق الأرض الصلبة يكتفي برش الماء عند الباب.

* * *

الليالي تطول. تتراكم شهور. حصّة تملؤها بالهناءة رغم عجزه. صابرة حنون. والليل وحده مواعيد للّقاء والبهجة. في النهارات لا يكاد يراها. يعود ظهراً من الدكان مع أبيه. يراها وهي تتحرك بخفة ما بين المطبخ والليوان. ترفّ بثوبها المنقوش. تجهّز الطعام له ولأبيه. ثم تذهب لتأكل مع عمته.

اكتشف أن حصّة ليست له وحده. وأن المخالب التي أهدتها له تشاركه حلاله. سخّرتها للخدمة في البيت دون رحمة. كان كثيراً ما يلمحها في المطبخ وقد تبلّل ثوبها. واسودّت وجنتاها من «سنان» المواقد. وتلبّد شعرها الناعم. وحين تخرج إلى الحوش يتبعها، يصيدها، يلاصقها. فتبتعد عنه تهرب. وتفوح من لحظة هروبها رائحة الطبيخ مختلطة بالعرق. ينتظرها حتى تدلف إلى غرفتهما. يحضنها بشوق. تصدّه وحمرة الخجل تطفو على وجهها.

- سأستحم أولاً.

مع وشوشة الماء وحركة الطاسة يسمع حركة جسدها. يتصوّرها تسلخ جلدها. تنزع عنه التعب. ثم تخرج إليه نديّة معطرة؛ شهيّة مثل رمانة، وكأنها تدعوه أن يفتّتها ويلتهم حباتها: حبة، حبة. لكنها تدفعه برفق عنها متأوّهة متوسّلة:

- عظامي تعورني. لا تكسرها.

كان يدرك مدى تعبها. وكأن عمّته التي تستعبدها تقصد أن تقدّمها له آخر النهار ثمرة ذابلة حتى لا يهنأ بها وتهنأ به. وليس لهما غير الليل. فيه يتآنسان ويمسحان عن بعضهما هموم النهار.

لم يكن قادراً على مواجهة عمته. أن يعترض عليها ويطالبها رفع الثقل عن حصّة. كان إحساسه بضعفه أمام حصّة يضاعف خوفه من مواجهة العمة. ماذا لو صرخت في وجهه وعيّرته بقصوره وعجزه؟ وقد يركبها الشيطان وتفكر أن تفصل حصة عنه.

كان يجد في سكونه درءاً للظلم عنه وعن حصة. حتى أباه كان يسرق منه حصة رغم تعبها طوال النهار لتهمّز له ساقيه، تقضي له طلباته، تنظف غرفته وتغسل ثيابه. لم يكن قادراً أن يقف في وجهه ويطالبه أن يترك حصة له. كان يتحاشى حتى النظر إلى عينيه وكأنه سيلمح فيهما ما يجرّحه «أنت مو رجّال».

لم تكن حصة تلقى من الراحة إلا القليل. ولم يكن لها من حقّ للخروج إلا مرة في الشهر لتزور أهلها. تعود له متهلّلة، سعيدة وكأنها نسيت في يوم عذابات شهر كامل. تعود إليه وسرّها في صدرها. لا تنبئ به لأمها. ولا تفشي سرّ البيت الذي تلقى فيه المهانة والتعب.

كانت تفرح بالقليل من زيارات أمها لها. لكن عمّته استكثرت عليها رشّة الفرح. تعمّدت أن تسيء معاملة الأم. والتقليل من شأن هداياها الصغيرة لحصة. حتى كفّت عن المجيء. واكتفت بزيارة ابنتها لها.

بكت حصة يوم أخبرتها أمها أنها لن تزورها ثانية لكنها ابتلعت قهرها، وحين أخذ يواسيها ويعتذر لها همست:

– علشانك يا سالم أحتمل كل شيء.

– لكنها تحرمك من أمك.

ألقت عليه سؤالها المتردد:

– وأنت؟ ألم تحرمك من أمك؟

* * *

«آه يا أمي،

يـا مصدر الخير الذي قطعته عمّتي. تذكرتها وحصة تذكّرني بحرماني منها. كنت أسرق من الشهر نصف يوم لأذهب إليها. وأبي يتستّر على ذهابي ويفرح لأجلي. حين تفتح لي الباب تغمرني رائحة الأم. يتدفّق حنانها في لحظة تنسيني حرمان كل اللحظات. تلمّسني. تتشمّمني. كأنها خائفة أن تكون عمّتي قد سرقت من أضلاعي. أو كشطت عن ثغري أثر حليبها الصافي.

أفرح وأمي تبلّلني بالحنان. أرى إخوتي من زوجها الآخر. أحضنهم. أقدّم لهم حلوى وقراطيس وألوان. تدمع عيناها. تشكرني. وتفرش أمامي طعامها الشهيّ. فآكل بنهم وكأنني لم أذق الطعام منذ أن فارقتها آخر مرة، وحين أودّعها تشدّني إلى صدرها وكأنني ما

زلت ذلك السّالم الطفل الذي رأته آخر مرّة في حوش البيت وقد تعفّر وجهه بالدموع وبالتراب».

* * *

حين وافق على قرار عمّته بتزويجه. نَبَتَ في داخله شعور عذّبه. كان يتمنّى لو أن أمه هي التي تقرر. وهي التي تختار وتخطب له. وهي التي تعدّ لفرحه وتعلو زغاريدها. فكيف سيتزوج وقلب أمه بعيداً؟ أليس من حقها أن تعرف؟

لم يتردد بمفاتحة أبيه وهما يتناولان الطعام:

– أمي لم تعرف بعد أنني سأتزوج.

رفع أبوه وجهاً غاصاً بالحزن:

– المفروض أنك تخبرها.

تمدّد الفرح بقلبه. شعر أن أباه المغلوب على أمره يقدّر مشاعره. يقف معه. يشجّعه على البرّ بأمّه. تشجّع:

– هل أذهب إليها اليوم؟

بارك أبوه خطوته:

– روح يا وليدي. روح. لكن!!

التفت ناحية المطبخ. فهم أنه يقصد عمته. ويخشى منها. طمأنه:

– لا داعي أن استأذن منها حتى لا تعطل الزواج.

* * *

«يوم عرسي. دخلت أمي كالغريبة. تلاحقها عيون عمّتي. اقتربت مني. كنت أسمع طبول قلبها وزغاريده. حضنتني وشوق

الأم المحرومة يغمرني. نسيتُ وأنا أشمّ رائحتها رائحة البخور وماء الورد. قبّلتني بحرارة وكأنها تريد أن تعوّضني عن تلك القبلة القديمة التي لم تصل. ابتلعت دموعها. قدّمت لي مصحفاً:

– ضعه تحت رأسك. يحميك وزوجتك من الشرّ.

اكتشفتُ بعد ذلك أنها أهدت لحصة سلسلة ذهبية يتدلّى منها مصحف وخرزة زرقاء. داعبتها حصة بأصابعها وهي تخبرني:

– قالت لي أمك إن هذه ستحمينا من العين والشرّ.

لم تكن حصة بعد تعلم ما هو الشرّ الذي قصدته أمي. لكنها بعد معاشرة عمّتي عرفت. وجرّبت. لكن الشر كله لم يزدها إلا حباً لي. وصبراً على عجزي وتهويناً عليَّ مصيبتي:

– لا تفكّر.. ستقدر ذات يوم.

أخجل منها. أدفن رأسي. تداعب شعري:

– أقص لك قصة؟

– قصة شنو؟

– قصة الساحرة.

أتظاهر بالرجفة:

– أخاف.

تعاتبني:

– تخاف من ساحرة غير حقيقية؟

أعاندها:

– بلى. موجودة. هنا.

وأشير إلى باب الغرفة. تفهم مَن أقصد. تضحك من صميم

قلبها حتى تدمع عيناها وتسكت فجأة خشية أن تتسرّب رنّات الضحكة إلى الساحرة. فتأتي وتنقضّ على سعادتنا».

* * *

هل كانا يعيشان السعادة حقاً؟ هل تكون السعادة حقيقيّة مكتملة وهما يخافان حتى على الضحكة أن تصل آخر الليل إلى سمع العمة؟.

هل يسعدان والعيون تلاحقهما بالأسئلة القاسية، تبحثان عن السر الذي يذبلهما ولا يأتي ببشارة الحمل؟ نظرات عمّته الشوكيّة. ونظرات أبيه اللائمة. وسؤال أمه الحنون الصريح:

– متى أفرح بعيالك؟

ينقل السؤال لحصة. تغذّيه بالأمل. ترفض يأسه. تشجّعه على المحاولة، فيقترب وشرارات جسده ملتمعة. لكن انطفاؤها يأتي في لحظة. يشعر وكأن سيفاً حاداً يضرب ظهره. تغيم عيناه وينتشر الظلام. تغيب عنه رائحة حصة المنعشة. تفوح رائحة دانة. ورذاذ الهرّ. وصرخة عمته.

كان يأخذ هدنة من المحاولات الفاشلة. يهرب من وجع حصة التي تؤاسيه. ترقد بجانبه أليفة كدانة. وحين تغيب في النوم يتفقّدها. يخاف عليها. يلتصق بها متصوراً أن يداً قاسية ستمتد وتفصلهما.

الليالي تمر...

تحسّس في تلك الليلة مكان حصة في الفراش. لم يجدها. انتفض. ناداها باسمها هامساً. لم ترد. عربد الخوف في قلبه. تذكّر غياب دانة تلك الليلة الشتائية. فتح الباب. لفحته النسمة الباردة.

والذكرى الموجعة. سار يهمس باسمها. مرّتين، ثلاث. لمحها آتية.
شدَّ على ذراعها الهزيل:
- أين كنت؟
همست:
- في بيت الخلاء.
لطمه شعور غريب. تلفّت باحثاً عن ظل هرّ، مارد، أو قمر يزور العذارى في الليالي الباردة. لم يلمح أثراً لشيء. لم يسمع حتى رقّة جناح لطائر ليلي تائه.
سار بها إلى الغرفة. قرّب السراج من وجهها. كان متورداً. لمسه فإذا به دافئاً. فاض طوفان داخل رأسه. لماذا هي متورّدة ودافئة رغم البرد؟؟
التصق بها. أحسّ رطوبة جسدها. ثار اشتهاؤه. فكّر بالمحاولة. لكنه تراجع خوفاً من فشله. خمد بركانه. واشتعل شكٌّ غريب.
ما سرّ حصة؟
هل صارت مثل دانة تبحث عن دفء غير دفئه؟ عن هرّ يسرّب إليها النشوة؟
أفزعه الخاطر.
أنفاسها تصله مسرعة، يطلق سؤاله:
- نمتِ؟
- لا.
- تعبانة؟
- لا. بس يمكن «استبردت» من الحوش.

دنا منها. حضنها. داعب شعرها المتناثر ورموشها لتنام. لكن النوم جافاها كما جافاه. كان يحسّ خفقان صدرها. ارتعاشات أصابعها:
- ما بكِ؟
نظرت إليه. فاح عتاب سؤالها:
- ليش دوّرت عليَّ؟.
- خفت عليك. أول مرّة تخرجين وحدك.
تلوّن صوتها بالغضب.
- وضروري كل مرة تروح معاي؟
ذكّرها:
- اتفقنا على هذا.
- أنا مو «قطوة» تخاف عليَّ.
شعر بحزن. صورة دانة تموج في سواد عينيه. حصة تفهم مشاعره، وخوفه أن تفارقه كما فارقته دانة.
همست له:
- لا تخف ما يفرّقنا شيء.
ارتاحت كفّه على صدرها. أغفت. ربما على حلم جميل، أو أمل جديد. بينما أغفى وفي عينيه صورة لذئبٍ يفترس حصة.

* * *

يتكرّر خوفه.
أرقٌ ليليٌّ يدق أبوابه كل ليلة. مخاوف تتشعب في رأسه وتنبت شكوكاً، كلما تكرّر غياب حصة عن الفراش. أحسّها تتغير. تنفر من

اقترابه. من رائحته التي صرّحت له بأنها مزعجة. تتقيّأ حين يقترب منها باحثاً عن فستقة ثغرها. صارت ترفض محاولاته. وتسترحمه ألاّ يكرّرها. أين حصة التي كانت تتزلق بين يديه. تذوب ومطره يرشّها. تحب رائحته. تتذوّق الطّعم وتنام برعشتها غير المكتملة؟

لماذا صارت تتعب؟ تتذمر؟ وتذبل؟

صار يستعيد تلك الليلة التي خرجت وحدها وعادت دافئة. صار يتراءى له خيال هرّ آخر. هل كرهت حصة هرّها الضعيف؟ عاندها واستمرّ في محاولاته رغم الفشل، ورفضها، ونفورها. وكانت من يأسها تستسلم له. تتركه يتوسّدها، ويرشّها.

في تلك الليلة. تركها مستلقية على ظهرها. أخذ يتأمل جسدها الناعم. سار بكفه يداعب اللؤلؤ، والرمان. كفّه التي ترحل فوق الجسد توقفت فجأة حين اصطدمت بمرتفع صغير تحت سرّتها. استغرب، سألها:

– شنو هذا؟

انتظر وقد أفلتت بالبكاء قبل أن تجيب:

– ما أدري يا سالم. أنا تعبانة.

أشفق عليها:

– آخذك باكر للطبيب.

دفنت رأسها في جيب صدره:

– خذني لأمي.

مسح على رأسها. عادت كفه تحطُّ على التلة الصغيرة:

– ولكن. هذا!؟

واصلت بكاءها وردّها أشبه بالصراخ:

– ما أعرف. ما أعرف. لا تسألني.

تركها مصطخباً رأسه بألف سؤال، وحيرة، وخوف. همس قبل أن يستدير:

– يمكن أمّك تعرف.

* * *

حصة حامل.

هل تنبت الأرض العطشى زهرة؟ مَن ذا تراه سقاها؟ كيف حدث هذا وفأسه لم تفلح الأرض بعد؟ هل غزا أرضه هرّ آخر؟ كيف لم تفصله عنها يد؟ كيف؟ متى؟ وأين؟؟

لم يكن يوجه لها أي سؤال. لكنها تحسّ بما يعانيه. لا تتحاشاه. تتمنّى لو يفتح قلبه وفمه. ينطق بأيّ شيء. يفعل أي شيء ليرتاح. لكنه ظلَّ على صمته. يتعذّب ويعذّبها.

والثمرة تكبر....

مثلها يكبر الهمّ وهو يلمحها تنمو في أرضه. لا يشعر بسعادة المزارع التي يشعرها بعد الحرث والريّ. لا يجرؤ أن يسأل عن غريمه. كان حين يلامس جسدها وتتدحرج كفه حتى تصل إلى بطنها. يهمس في سرّه «هنا يرقد ابن شريكي». وتظلّ يده تهدهد النبت. تكتم سرّه. والقهر مكتوم في صدره. يأكل من عافيته وعافية حصة. لاحظ أبوه نحوله، وسهومه. سأله:

– ما بك يا وليدي؟

قذف بالخبر دون مقدمات:

- حصة حامل.

تهلّل وجه أبيه. عانقه بفرح. بارك له. وغادر إلى غرفته سعيداً، طائراً. لماذا يفرح أبوه؟ هذا الفرح يصدمه، يفزعه، يثير شكاً غريباً. هل يتحمّل الهمّ وحده؟ هل يبتلع الشوك ويصمت؟؟ ولماذا يشكّ بهررة الجيران وفي بيتهم هرّ آخر؟؟

في الليل اقتحم غرفة أبيه:

- يُبَهْ. شلون هذا صار؟

بهت أبوه:

- شنو اللي صار؟

- حمل حصة؟

أطلق أبوه ضحكة. أشار إليه:

- مو أنت زوجها؟.

دون تردّد ألقى باعترافه:

- أنا ما دخلتها من ليلة الزواج حتى اليوم.

انتصب أبوه واقفاً. قاربه. شدَّ صدر دشداشته حتى كاد يخنقه بها. عوى صوته بالغضب:

- شتقول؟ وشلون حملت؟

- أنا اللي أسألك.

زمجر أبوه:

- وشلون أعرف إذا أنت ما تعرف؟

احتدَّ صوته:

- ما في بالبيت إلا أنا وأنت؟

لم يحتمل أبوه التّهمة. رفع كفّه وهوى بالصفعة الحارقة على صدغه:

- «يا كلب»! شوف هالفاجرة من وين جابت «هالنَقَلْ»[1].

- حصّة مو فاجرة.

- فاجرة ونص، اسمع. اقطع السُّوْ قبل ما يكبر. اقتلها.

انتفض:

- ما أقتلها.

- إذن طلقها.

تحدَّى أباه:

- ما أقتلها، ولا أطلقها.

انطلق خارجاً. وصفق الباب وراءه.

* * *

يُطلّقها؟؟

كيف يطلّق سعادته؟ حصة التي عوّضته حنان الأم، وفقدان دانة. حصة التي لوّنت لياليه بالحب وأضاءت ظلمات روحه. كيف يطلقها؟

يقتلها؟؟

كيف يقتل روحه؟ ويقطع شريان حياته؟ هل يقتلها ليريحها من عذابها أم ليرتاح هو من عذابه. أو ليريح أباه.

تفاقم عليه الشعور بالعجز. أحسّه دبابيس تنغرز في جسده. شعر وكأن حصة قد صارت شوكة بعد أن كانت زهرة عمره. وقد

(1) النقل: اللقيط.

ارتضاها زهرة فهل يرفضها شوكة؟

هل يؤذيها وهي التي لم تؤذِ مشاعره يوماً؟

وهذا الشّك القاهر؟ كيف يسكته؟ كيف يرتاح منه؟ هل يسأل حصة؟ لم يجرؤ، كان يخشى أن تؤكد له الشكّ فيؤذيها ويؤذي البذرة الراقدة في أحشائها.

فضح أبوه سرّه لعمته، فصار عليه أن يحمي حصّة من الأنياب المتربّصة. وصوت عمّته الذي لاحقه:

- طلّقها.

- أحبّها. ما أطلّقها.

- أبوك طلّق أمّك. المفروض تقتلها.

- مثل ما قتلتِ دانة.

- هذي فاسقة.

شحن صوته بالحقد. قذفه في وجهها:

- لا أحد كثرك فاسق بنيّاته.

صرخت في وجهه:

- ما تخجل من نفسك؟ طلعت لك أظافر؟.

- وستطولك.

تركها مفجوعة بتهديده.

لـم ترحمـه عمتـه. لـم يرحمـه أبـوه. مـن أيـن تأتـي الرحمة؟ وتحريضه على قتل حصة يطارده:

- اللي في بطنها شيطان.

أصرّ أن يعاود لأبيه الاتهام:

- الشيطان في بيتنا.

* * *

«إن لم يكن أبي. فمَن يكون؟ لا أحد يدخل بيتنا. وحصة لا تغادره إلا لبيت أمها. آخذها بنفسي. وأعود بها في المساء زاهية بفرح اللقاء بأهلها.

كيف حطّت البذرة في أحشائها إذن؟ كيف لا أشك بأبي الذي كان ينتزعها من بين يديّ في كثير من الليالي لتهمّزه. وتلبّي طلباته؟!!

كان شكّي بأبي يعذّبني. حين تهدأ نفسي كنت أتساءل: هل يُعقل أن يكون هو؟.

أبي الذي عانى الظلم كما أعاني. صبر كما أصبر. فقد زوجاته كما فقدت أمي ودانة. أبي الذي لم يحقّق لنفسه السعادة والاستقرار هل يسرق هناءة ولده؟ أحاول أن أبرّئ أبي. لكن الشّك ينتصر. إن لم يكن هو. فمَن يكون؟.

افتقدتُ الراحة. تلوّعت. فارقني النوم. ابتعدت عن حصة. رفضت أن تنطق أمامي بكلمة. كلما حاولت أخرستها بنظرة حارقة. لكن قلبي لم يكن يطاوعني، حين تبكي وتتسلّل إليَّ شهقاتها. أدنو منها. أربّت على كتفها. تجف الكلمات في حلقي. لا أنطق لها إلا: اصبري.

لم أكرهها. لم أحقد عليها. أبتعد عنها. ثم أعود إليها. أشتهيها. أتجاهل مرتفعها الذي يحتوي الثمرة. أحضنها... أجرب الدخول... وفي لحظة تتقافز إليَّ الظنون والصّور فأتهاوى مبتلعاً عذابي ونقمتي

على الكون كله. على عمّتي.. أبي.. على نفسي.. وعلى حصة مصدر الحب. ومصدر العذاب الذي غيّر حياتي».



تغيّرت الحياة في البيت. نشط عداء بينه وبين أبيه. تباعدا. لم يعد يجالسه وقت الطعام. ولا يرافقه إلى عمله. وإن تلاقيا في الحوش. ينبر تحريض أبيه نظرات حارقة أو كلمات قاسية وجارحة. ينشب العراك، يرتفع الصراخ. وتكبر الهوّة.

عمّته هي الأخرى تتحاشى مجرّد النظر إلى وجهه. لا تجرؤ أن تكلم حصة أو تأمرها وتكلفها بأعمال البيت منذ أن حذّرها. وصرخ في وجهها مهدداً:

– لو ضايقت حصة. سأقتلك.

تحاشته عمته. تجاهلت وجود حصة. أسعده ضعفها أمامه. لم تعد تجرؤ إصدار الأوامر له. ولا بتكليف حصة في أعمال البيت المرهقة. وإن خرج إلى الحوش تفرّ من وجهه كمن يفرّ من عاصفة.

شعر بالقوّة والانتصار. أخيراً استطاع أن يقلّم أظافر عمّته التي أكلت من لحم طفولته؛ أن يكسر بأسها كما كسرت قلبه يوم أبعدت أمه ودانة من البيت. أن يذلّها كما أذلّت حصّة وأرهقتها. واستلبت راحتها.

لكن حصة لم تكن مرتاحة. لم تسعدها قوته التي نالت من حريتها. ضاقت بالغرفة وحدودها. رجته أكثر من مرة أن يهدأ، أن يغيّر طباعه. أن يرحم أباه، ولا يرفع صوته عليه؛ أن يعتق

عمّته من كراهيته وانتقامه؛ أن يرحمها هي من خوفه. لكنه كان السجّان الخائف على سجينته. يدافع عنها. يحميها من شرّ قادم يتصوّره.

في الليل سمع نشيجها. اقترب منها مستفسراً، قلقاً. هتفت بحزن فتّت قلبه:

– إن كان يريحهم ويريحك الخلاص مني. اقتلني.

التصق بها. مسح دمعها الساخن. رأى البراءة مفروشة على وجهها. هل يصدّق أن حصة خائنة؟ هل يصدّق أنها تهدي جسدها لغيره؟ إذن لماذا تطالبه أن يقتلها ويرتاح؟ يكاد يطفر السؤال من لسانه:

– مَن يا حصة؟

لكنه يبتلعه كالجمرة. لا يريد أن يعذّبها؛ أن يواجهها بشكّه. لكن العراك بداخله ينهشه. لم تستطع فرحته بانتصاره على عمّته أن تطفئ النار في صدره. كان لا بدّ أن يخمد النار. يرتاح. وراحته لن يحققها له أحد غير حصة التي يجب أن تكشف له السرّ.

خرج من البيت، هام على وجهه نهاراً كاملاً. عاد مرهقاً، متعباً. وقد قرّر أن يخلع رداء صمته.

دخل عليها. كانت متكوّمة على نفسها كما كانت تفعل دانة. حين شعرت به رفعت رأسها. أزاحت شعرها الذي تبعثر على وجهها. لمح الوجه باكياً. أدرك كم هي تتألم. تحتاج لمن يداوي جروحها ويمسح على نفسها الكسيرة. جلس بقربها:

– ليش تبكين؟

بصوت ملوّع:
- أنا أذيتك يا سالم. حتى أبوك تأذّى مني.
كانت فرصته ليدخل من الباب الذي فتحته.
- أبوي يستاهل. خلّيه يتأذى.
- وليش يا سالم. شنو ذنبه؟
اغتـاظ. داهمـه شـعور أنهـا تدافع عنـه، وأنها بهذا الدفاع تكاد تؤكّد شكوكه. أراد في لحظة أن - يزوعَ - ما اختمر في ذهنه من العذاب. واجهها بعنف:
- مو هو صاحب الفعلة؟
أشار إلى بطنها.
ارتعـدت... اصفـرّت. اتّسـعت عيناهـا حتـى شـعرت أنهمـا ستخرجان من محجريهما، انفجرت من داخلها آهات، وارتجافات، لم يرحمها، ألحَّ:
- هو أبي.
هزّت رأسـها نافية، هزّات لم تسـتقرّ حتى شـدَّ على رأسـها. فانفلتت كلماتها:
- لا تكن ظالم يا سالم.
- أبوي اللي ظلمني. وهذا ما فعل.
لـم يشـر إلـى بطنهـا. وجـد كفّـه تتكـوّر وتحط علـى المرتفع بـلا حـذر. دفعـت بيـده. حرسـت ثمرتهـا. فـاح غضبهـا ممزوجـاً بدموعها:
- أنت مجنون مو صاحي. أبوك ما لمسني.

كان اعترافهـا ببـراءة أبيـه سـهماً حارقـاً. ينغـرز فـي قلبـه، في خاصرتيه، أشـعله. هبَّ واقفاً، شـدّها إليه، صرخ في وجهها وكفاه الضاغطتان على ذراعيها تهزانها بلا رحمة!
- إذا مو أبوي. قولي. من؟... من؟...
- ما حدّ. ما أدري شلون.. والله ما أدري..
صفعها... دفعها إلى الأرض كان السهم قد قصف البقية الباقية من هدوئه. تلبّسـه جنون شـيطان أعمى. أخذ يرفسـها بقدمه وتنهال كفـه علـى رأسـها، علـى وجههـا، على كل مـكان تقع عليه. صوت الضربـات وصراخـه يتخالطـان: مَـن الفاعل؟ قولي أو قتلتك؟ من؟ من؟
وقـع، وقـد تراكـم الزبـد حول شـفتيه. لهاث صـدره ينبئ عن مدى تعبه. انفجر باكياً. نسيت عذاباتها، ألمها المضاعف، اقتربت إليه، حضنت جسده، لم يرفضها رغم غضبه وجحيمه الذي سقط فيـه. كان محتاجـاً لمـن يهدهـده ويحنو عليه. مسـحت على رأسـه، صبَّت حنانها في أذنيه:
- ليش تؤذي روحك بهالصراخ؟
استدار إليها. أسقط رأسه بين ركبتيها وبكاؤه لا يتوقف:
- أنا أتعذّب يا حصة.
همست:
- وأنا أتعذّب مرتين. مرّة علشانك ومرّة علشاني.
توسّل إليها:
- يا حصّة. الله يخلّيك. قولي الحقيقة. مَن فعل بك هذا؟

- والله. والله يا سالم. لم يلمسني أحد. أنا ما أدري كيف هذا حصل.

وشدّت عليه. أكدت له:

- أنا أحبك يا سالم.. شلون تشكّ فيني؟.

سمعا طرقاً على الباب.

صوت عمّته مستفسراً:

- سالم.. حصة.

تأهّبت حصة لتفتح. شدّها وأمرها:

- لا تفتحي لها.

- يمكن تحتاج شيء.

- اتركيها. خليها تذلف بشرّها.

انتظر حتى سمعا صوت أقدامها تبتعد. كان قد هدأ.. ظلّت حصة تحضنه، تُهدهه قبلاتها وترجوه:

- يا سالم. خلّ عنك هالوساوس. تعوّذ من الشيطان. ولا تظلم أباك.

- أبوي كل يوم يطالبني أن أطلقك. أو أقتلك. كرهته.

- لا تقول هالكلام. الظفر ما يطلع من اللحم.

استكان في حضنها. استسلم لهدهدتها. ودّ أن يرتاح أكثر، بهدوء سألها:

- «صجّ» يا حصة. أبوي بريء؟ وما حدّ غيره...؟

قاطعته. حلفت:

- وراس أمي وأبي. وراسك الغالي.

لكن حيرته دفعته:

- لكن شلون؟ شلون؟

تنهدت:

- أنا مثلك محتارة. الله اللي يعلم.

* * *

«رغم حيرتي التي ظلت تسكنني. إلا أن كلام حصة. وتأكيد براءتها وبراءة أبي صبّت على قلبي ثلجها. بدأت أهدأ. خفّفتُ من حدّتي مع عمّتي، وأبي. وخفّفت عمّتي حدّتها مع حصة التي أصرّت أن تخرج من سجنها. وتعاود حياتها الطبيعية في البيت. كنت أخاف عليها من الأعمال المرهقة التي كانت تلقي بها عمّتي عليها. لكن حصة طمأنتني. أكّدت أن عمّتي لم تعد تأمرها. تركتها تقوم وحدها بالعمل الذي تختاره. فرحت. وتيقنت أن شرَّ عمّتي كان بحاجة لشيء يقابله حتى يخف استبدادها. وكان لمفعول غضبي نتائجه الطيبة.

صمتت عمّتي.

صمت أبي.

لم يعد يتصيّدني ليأمرني بتطليق حصة أو قتلها. حتى في الدّكان. كان يتحاشى الكلام معي. يتلهى بالحديث مع أصدقائه أو المارّة. وأتلهّى بالكتب والقراءة. ونادراً ما نتبادل الحديث الذي يخصّ العمل أو حسابات النهار. وفي البيت لم يعد يطلب من حصة أن توافيه لغرفته لتهمّزه وتقضي طلباته كما كان يفعل.

هذا الصمت رغم أنه أراحني من نوبات الغضب والصراخ. إلا أنه أثار قلقي. هل كان أبي يحتفظ بغليانه بانتظار لحظة يطفو

بخارها ويعبّق المكان ظلاماً؟

لم أخفِ عن حصة مخاوفي التي تفترسني وتهاجمني شرارتها. وكوابيس الليل لا ترحمني. أهرب من البيت. من تعبي إلى البحر. أغطس فيه. أغسل روحي، أتصوّر أنني خلعت كل أثواب همومي هناك. وما أن أدخل البيت حتى تعود تتلبّسني الأفكار والتصوّرات المخيفة. والتساؤل: «ما سر صمت أبي وعمّتي؟ ماذا يدبران؟ هل يتآمران عليَّ أم على حصة؟».

قرّرت أمراً لأحسم متاعبي. تردّدت حصة في قبوله أول الأمر. ثم شجّعتني عليه».

* * *

فكّ حصار نفسه. دخل غرفة أبيه. أشاح عنه. لم يأبه. جلس ليس قريباً وألقى بقراره:

– سآخذ حصة ونترك البيت.

فوجئ الأب. التفت إليه حانقاً:

– وين تنام. في الشارع؟ أو بيت أمك اللي مثل الجحر؟.

أجاب واثقاً:

– سأكتري حتى لو غرفة. الدنيا كبيرة.

نفض أبوه كفه في وجهه ثم دقّ على صدره:

– والله ما هي أكبر من النار اللي في قلبي.

حاول يهدئه:

– يا «يُبَهْ» لا تخلّي النار تأكل صدرك.

هزئ:

– النار إن شاء الله ستأكلها.

– سأحميها منك. ومن عمّتي.

– وين ما رحت. سأطولها.

– تهدِّدني؟!

– وأنذرك. إن ما غسلت العار. أغسله أنا.

فزع... غادر المكان وكأن النار تلاحقه. اشتعل الدويّ في رأسه. تأكّد أنه محقّ في مخاوفه، وأن الخطر يحيق بحصة. اندفع إليها. صارحها بالتّهديد الذي سمعه. ارتجفت. لكنها تحاملت على نفسها. حاولت أن تبعد عنه الظنون السوداء وتريح نفسه:

– أبوك مغتاظ منك. لكن الأب ما يؤذي عياله.

بداخلها تقاذفت الهواجس.

بداخله ثارت البراكين.

يغفو في الليل. يحسّ جسده يسقط في بحر أحمر. يرفعه الموج عالياً ثم يطيح به. يرتطم رأسه. يصرخ. يصرخ. يستفيق وحصة تثبت جسده بذراعيها والرّعب يطلّ من عينيها. لاهثاً يستفسرها:

– شنو صار؟

– يمكن كنت تحلم.

– بحر يا حصة، بحر من دم وأنا «أتطوطح» فيه.

تهرع له بكوب الماء. تُسمِّي عليه، تهدئ أنفاسه المضطربة، يحضنها:

– لا تتركيني. التصقي بي.

* * *

«التصقتُ بالبيت. هجرت الشارع، ودكّان أبي، والمكتبة، والقراءات. صرت مثل صرصار يدفن نفسه في الشق، وإن خرجت إلى الحوش تظلّ عيناي لا تفارقان باب غرفتي. تحرسه تتأهّب لصدّ أيّ هجوم أو خطر. وفي الليل أغلق على نفسي وحصة بالمفتاح. وأراكم خلف الباب بعض الأغراض. فإن كان لدى عمّتي أو أبي مفتاح آخر، فإن الحركة ستوقظني من الغفوة والغفلة. مرّات عدّة حين يستبد الخوف بي أقبع خلف الباب. أتلصّص من ثقب المفتاح باحثاً عن ظلّ لعدوّنا المتربّص بحياة حصة.

كانت تتوسّل إليَّ أن أهدأ. أطرد الوساوس. أنام. وأسترد عافيتي. في المرات التي أطيعها فيها وأغفو يحاصرني بحر الدم. أهبّ مفزوعاً صارخاً. تهتز أركان الغرفة، ثم أسقط متلاشياً.

استلب العياء صحتي. فقدت شهيتي لكل شيء حتى وجه حصة وجسدها. لم أعد ألامسه. أصابني صداع شديد صاحبته حالات من الإسهال والغثيان. وفي بيت الخلاء تقفز لي صورة دانة في لحظتها الأخيرة، مواؤها المتوسل. أبكي. أتمزق، أفرغ متاعبي وأخرج من المكان يسبقني صراخي. تفزع عيون البيت. ألمح خيالات الوجوه، أبي، عمّتي وحين أفيق. أفتح جفني على وجه حصة الدامع. أجدني غارقاً بعرقي، وبولي، وزبد فمي. أسمع صوت أبي يخترقني من الدريشة:

– الولد جنّ.

تتوسّل إليَّ حصة:

– لازم تروح للطبيب.

– أنا مو مجنون.

– أنت مريض. وأنا خايفة عليك.

أحيط وجهها بكفّي، أتحسّسه، أنحدر إلى عنقها الذي تتدلّى منه خرزة أمي الزرقاء، أتلمّسه بلطف. أنثر خوفي:

– سيقتلونك يا حصة.

– أنت تتوهّم. لا أحد ينوي هذا.

أتركها. لا تقوى أن تمسك بي. أنفلت إلى الحوش. أصرخ ملء صوتي، أشتم عمّتي وأبي. تتناوبني حالة هياج لا أستفيق منها إلا وأنا مطروح على الأرض شبه ميت. ليس أمامي إلا وجه حصة. تبلّل جفاف حلقي بالماء. وتحتويني بحنانها الآسر. تبكي. أبكي معها. أشدها إليَّ وأقسم لها:

– سأحميك. لن تموتي... ستعيشين...».

* * *

كرّر بصوت لاهث وكأنه كان يقطع مسافات عميقة في غيبوبته:

– ستعيشين يا حصة. تعيشين... تعـ...

فتح عينيه. لم يكن وجه حصة بانتظاره، صافحه وجه الطبيب. نظرة حنون. صوت رقيق:

– وأنت ستعيش يا سالم.

خفض رأسه. أدرك أنه تاه في غيبوبة. كفّ الطبيب التي كانت تقيس نبضه. أخذت تربّت على كفه وهو ينشج بالكلمات:

– لكنها ما عاشت.

- أنت ما قصّرت. حاولت أن تحميها.

أدهشه ردّ الطبيب:

- كيف عرفت؟

- كنتَ تحكي كلّ شيء. ظللت تحرسها كل الوقت. كيف إذن ماتت؟

ضغط على رأسه:

- أحاول أن أتذكر... فلا أذكر شيئاً.

- قلت إنك طلعت الحوش. أخذت الحبل. طوّحت به في وجه عمتك، وأبيك. كان الحبل بيدك يا سالم.

اعترف بهدوء:

- صح. لكنني كنت أخوّف به عمّتي. وأبي. لم أقتل به حصة.

- مَن إذن الذي فعلها؟

- عمّتي... ماكو غيرها.

دار الطبيب حول سريره، تأمّله حتى ارتاحت أنفاسه. اقترب من رأسه. مسح عليه:

- يا سالم. كنت أنت وحصة وحدكما في البيت. أبوك وعمتك دخلا وكنت بقربها والحبل في عنقها.

- لا... لا... لا...

خرجت الصرخات كاللّهب. أخذ يعافر في السرير. يلوّح بذراعيه. تصدم يداه إبريق الماء ووجه الطبيب. كان صراخه قد جذب حركة الممرضات والشرطيّ الذي يحرس الغرفة. انغرزت

إبرة في ذراعه. قال الطبيب وهو يغطي جسده الذي تراخى:

- سيرتاح الآن.

* * *

يسري إليه الخَدَرُ... يغيب. لا يحسّ بأيّ خيوط تشدّه إلى الحياة. إلى كل مَن حوله. إلى الذين يريدون أن ينبشوا ذاكرته وكأنها - قبر حصة - أو - قبر دانة -.

تطول غيبوبته. الأحداث والصور كلها تتجمع، تحضر. يلمح وجه دانة. حبله الذي تدلّى إليها يتصورّها وقد قفزت إليه. يمسح الأوساخ عن وجهها. ينفخ في ثغرها من أنفاسه فتتجدّد فيها الحياة يضمّها إلى صدره. يحسّ دقات قلبه ترقص ويلمح وجه حصة مزروعاً بالابتسامات. ينثر رياحينه على وجهه. وجسده. تنبعث لياليهما الجميلة. يتسرّب إليه الفرح، تفاجئه الضحكات لكنها ما تلبث حتى تغادره. إذ ينتصب وجه دانة في لحظته الأخيرة وفزعه الذي لا ينساه، ووجه حصة، عيناها الرائعتان الشاردتان. وترتمي داخل عينيه شرارات من العتاب:

- لماذا تركتني الليلة يا سالم؟؟

هو نفسه لا يريد أن يصدّق أنه تركها: كيف غزاه أمان كاذب فأسلمها إلى الموت؟.

في تلك الليلة غادر أبوه وعمّته البيت. دارت في رأسه الظنون. كادت تتوّهُهُ وتقلقه لولا أن فرحه انتصر على الظن. هي المرّة الأولى التي يغيبان فيها. يتركانه وحصة وحيدين. شعر أنه يملك البيت كله. خرجا إلى الحوش يتراكضان... يتسابقان... والليل دافئ

كحضن أمه. القمر يختال في السماء ويبعثر فضّته في الأنحاء. هرع إلى غرفته. حمل فراشه والوسائد بَسَطَها في قلب الحوش. استلقى سعيداً. ناداها وهو يفرد لها ذراعيه:

– تعالي...

انطرحت بجانبه كقطة وجسداهما منديّان بعرق الركض، والفرح. ثمّة خيالات تتراءى لهما من فوق السور وتتزلق إلى الأرض. تذكّر دانة حين تتمشى. ثم تقذف نفسها بين يديه. حصة الآن دانته. التصق بها. كفّها الرطبة اندسّت في كفّه. رأسها فوق صدره وشعرها يتبعثر كالحرير. فاح عطر الحناء منه. فاحت رائحة الأنثى. دسّ أصابعه في صدرها الذي امتلأ وتلوّنت هالته بالسمرة. ضغط. تأوّهت. انحدرت كفه لامست التلة المرتفعة: «ابن الشريك. رابض مستريح» شعر أنه يحبه... يرضى به. الليلة هو سعيد ولن يسمح لشيء أن يفقأ دمامل الجرح. هو يحبّ حصّة. يحبّ ثمرتها، حزنها، وجهها الذي سطع أمامه قمراً آخر قريباً وحنوناً.

آهاتها تحرك سواكنه. قبلاتها الحارة تشعله، رائحتها تبعث القوّة في جسده، حصة بين يديه رمانة شهيّة تثير براكينه الصامتة، هي دانته، هو الهرّ القويّ المشتاق.

كل عذابات الماضي تغادر في لحظة. طبول عرس تدق. زغاريد أمه والنساء، ووجه حصة في يوم عرسها يتألّق. يلتوي بالجسد محموماً. يعتلي أسوار القلعة فارساً. و... يقتحم الباب. يخترق الدهليز المحصّن. فتسيل الغدران بلون الورد. وحصة تكتم صرختها تشدّ عليه تبكي... تفرح... تتأوه... وترتاح. يرتاح بجانبها. عصفوران حلّقا في سموات النشوة. وانسدلا إلى الأرض. الجنّة

فتحت لهما الأبواب وأكلا من ثمرها الشهيّ. صارت حصة له. صار فارسها الشجاع. فاتح القلعة العذراء. كيف؟ وهذا النبت!!

لا... لا يريد لشيء أن يعكّر عليه لذّة الانتصار. بعد ذلك الصّبر الشائك والانتصار المرّ.

كل المرارات تزحف بعيداً عنه. سكن الحلو كل أعضائه. يدغدغه غرور كبير حين يكتشف أن لا أحد غيره ولج باب جنّته؛ ولا سبح في نهرها، ولا تذوّق فاكهتها.

هي ليلتهما الأولى، ليلة العرس التي حلما بها وانتظراها بشوق. تمنّى لو كانت كل العيون شاهدة على النصر، عين أمه لتباركهما؛ وعين عمّته لتختنق بغيرتها وتلتف حول عنقها حبال الغيظ فتموت.

صوت حصة الدافئ يتماوج في الهواء يسري إلى سمعه:

– سالم.

– يا عين سالم. يا روح سالم.

– أنا جوعانة.

هي لحظة الحب التي تمتص فيها عروق الجسد كل مخزون الجوف. حين تشبع الروح ويمتلئ القلب، تتلهّف المعدة لقطرة عصير، لقمة خبز. بعدها تَتَخدّر العين، تغفو في بحار الأحلام.

التفت إليها. قرص وجنتها المتوردة:

– الليلة. ليلة عرسنا. ما لازم نأكل من سُمْ هالبيت.

– وشنو ناكل؟

– أروح أجيب من السوق. ها. قولي. ماذا تشتهين؟ كباب

وبصل وخبز تنور حار؟.

انتفضت:

– لا. لا تخلّيني بروحي.

– ما اتأخر... لازم تشبعين الليلة.

انسلَّ من بين يديها. لم يكن انسلالاً سهلاً كانت ذراعاها تشدّانه كلما ابتعد. تُلصق جسدها به أكثر، تقبّله. تفوح من ثغرها رائحة الخوف. تتوسّله أن يبقى. تؤكّد له:

– خلاص راح الجوع. لا أريد كباباً ولا بصلاً ولا خبز تنور ولا... لا تتركني.

لكنه انفلت من بين الذراعين الرطبتين. تركها قطّة مبلّلة بالشوق، ذائبة تحت شعاع القمر وصوتها المرتجف يأتيه وهو يسوّي غترته وعقاله فوق رأسه.

– سالم. لا تتأخر. الله يخليك.

خرج وصوتها يتأرجح في مسامعه عبقاً بالنشوة وبالخوف. الليل رائع الهدوء يشمل كل شيء. قطع الطرق الملتوية الضيقة باتجاه السوق. النسمات تلامس أطرافه. تفوح رائحة عشقه الذي مارسه مع حبيبته. تدفعه فرحته ونشوته يغذ السير «هي جائعة وأنا سعيد».

اقترب من حركة السوق. شعر وكأن عيون الناس كلها تعرف سرّ فرحه. تشمّ رائحته وكأنه جنين تفوح منه رائحة الرّحم الذي خرج منه للتوّ. كل العيون يحسّها تهنئه. تضاعف فرحه فيركض. يركض كطفل يريد اللّحاق بالأطفال الذين سبقوه. يشوت حجارة

الطريق، يلتقط عصا، يكسرها بقوة، يمسك بحصى، يداعبها، يشمّ فيها رائحة التراب. رائحة حصة الرطبة. يهدي السلام بعينيه لكل المارّين. يشعر وكأن جناحين نبتا له. لا الأرض تتّسع له ولا الفضاء. يطير فرحاً. مغرداً. والهاً. عصفوراً صغيراً يطير بعد أن درّبته أمه على الطيران.

«آه. أمي. كم مضى من أسابيع وشهور لم أطرق بابها. لقد كبّلتني مخاوفي وشكوكي. منذ متى لم ترَ وجهي؟ لم تسمع أخباري؟ منذ متى لم أضع رأسي على صدرها اللّين الحنون لأسمع خفقاته تنادي باسمي... سالم... سالم... سالم...

أنا الآن يا أمي. ولدك الذي اختطفوه من حضنك صغيراً. أتذكّرك الآن وقد صرت – رجلاً – هل أحرمك أن تفرحي بي مثل فرحي بنفسي؟».

* * *

غيّر اتجاهه.

ركض نحو بيتها. طرق الباب. عزف بالطرقات ألحان فرحه. وشوقه. فتحت. هبَّت نسمة عبقة. حين تأكد لها وجهه شهقت والبشر يتطاير من وجهها:

– سالم؟ أنت في هذا الليل؟

ارتمى عليها. بطفولته التي عاودته. عانقها بحرارة. هتفت روحه «ما أشهى رائحة الأم بعد فراق. وما أحلى عناقها بعد الصبر».

هتف:

- أنا يا أمي. أحمل لك بشارة.

انفرشت دهشة حانية على وجهها وهي تفسح له الطريق:

- تعال... تعال... بشارة خير إن شاء الله.
- خير يُمّه... كل الخير.

جلسا فوق حصيرة الحوش. انفرجت شفتاها بابتسامة عريضة استحثته:

- يا الله قول. فرّح قلب أمك بعد هالغيبة الطويلة.

أغمض عينيه. استعاد لحظته مع حصّة. تقاطر صوته:

- سامحيني. كنت يا يُمّه غرقان. ضايع. اليوم بس لقيت روحي.

هلع قلب الأم الصّابر. تراكضت الأسئلة المعجونة بالقلق. والخوف. والتوقّع. إلحاح لا يلتقط أنفاسه. وقلب أمّ لا تكف دقاته عن التوتر.

شعر أنه عكّر مياه فرحتها به. أشغل بالها. وذوّب قلبها. انكب برأسه فوق ركبتها. كفّاها ضغطتا على رأسه. تتفقده – هل طار عقل الولد –؟ سمّت عليه ولهفتها المترقرقة بالدمع:

- يا وليدي شغلت بالي. قل.

فتح دفاتره المسكونة بالألم. نبش تعب الشهور. أغرق أمه بتفاصيل هو نفسه ما حسب أنه يحفظها، وأنها حفرت الجروح عميقة في روحه، حتى كاد يشم سمومها تفوح وتنثر قيحها إلى أنفاس أمه التي تشهق تارة وتتأوه تارة أخرى ترتجف كلماتها وحسراتها وهي تحضن جسده في حضنها وتعاتبه:

- كل هذا يا سالم. ولا تقول لأمك؟
- ما كنت أريد أن أثقل عليك بهمومي؟
- من يشيل همّك غير قلب أمك؟
- تعبت... وحصة تعبت.
- زين ما جنّيت.
- أبوي وعمّتي قالوا هذا. حصة قالت روح لطبيب.
- رحت؟؟
- لأ. قلت أتحمّل وتحمّلت. الحين الحمد لله. جيت أبشّرك.

شدَّت رأسه إلى صدرها. تنشّقت عطر شعره المتعرّق. هو يكرّر مثل طفل وصوتها:

- الحمد لله اللّي بلّغني فيك.

ابتعد عن صدرها.. نظر إليها والحيرة تملأ عينيه:

- بس يا يُمّة. شلون حملت حصة؟

ضحكت.. بانت أسنانها، ولثّتها المصبوغة «بالديرم».

- حسبي الله عليك ولد... كل شيء يصير. قدرة الله.
- ليش قالت طلّقني. أو اقتلني وارتاح؟
- خافت. ما تدري شالسالفة. وايد بنات (يَحْملون قبل ما...)

دفعته وهي تداعبه:

- «بَسَّكْ عاد» لا تصير غشيم.

قبّلها. تشمَّم حناء كفيها. أخذ يشكرها. يطلب رضاها ودعواتها. أراد أن يتمدد على الحصير. نهته وهي تلكزه:

– خليت حصة بروحها.

هبَّ واقفاً... تذكّرها. تذكّر الكباب الذي وعدها به. تذكّر صوتها يرجوه ألاّ يتركها وحيدة. طمأن أمه وهو يُطمئن نفسه:

– لا تخافي.

– الشرّ يا سالم يسكن حتى شقوق بيتكم. روح بسرعة.

أبدى لها بعض الدلال:

– تطرديني؟

عانقته:

– بودي لو تبيت الليلة فوق صدري. وفي عيوني. لكن أنا خايفة.

شقّ سهم الخوف قلبه. طار نحو الباب وقد فاجأت الريح ركبتيه. وقدميه. سكنته الرجفات وهو يندفع خارجاً ودعوات أمه تندفع وراءه تحرسه.

عاد يقطع الشوارع. يتبخّر فرحه وينمو الخوف. الطفولة التي عادت إليه خلعت نفسها، شعر بقدميه تثقلان. يحثّهما على السير. يشعر بالظلام يتكاثف من حوله. ينظر إلى القمر. لم يكن هو نفسه الذي تركه في حوشهم. كان قمرهما يضحك ويتلألأ. يراه الآن شاحباً. مهموماً. أحسّه يبكي. هل ينبئ حزنه عن شيء؟ هل حصته في خطر؟

انطلق راكضاً. يُطاير تراب الطريق ويفتّت حصاه، وقلبه رغم الخوف لا ينسى ما وعدها به. هي جائعة وقلبه يهتف:

«يا بائع الكباب والبصل. الليلة ليلة عرسي. العروس

جائعة. ممدّدة تحت نور القمر؟ أسرع. الخوف يسكن قلبي. أخاف من شقوق الجدران أن تُخرج الشياطين. تحرق ألسنتها حبيبتي. أخاف أن تسرقها الخفافيش. وتلدغها العقارب وهي بين الصّحوة والنوم.

أسرع... أسرع... يا بائع الكباب».

* * *

الأكياس في يده. خطواته تسبق صحوة غبش الفجر، الثقل في صدره يتزاحم هو والخوف عليه. أدرك أنه تأخر. ستكون حصة قد ملّت، ونامت. لن يتركها. سيوقظها سيطعمها بيديه حتى تتجشّأ من الشبع.

أخرج المفتاح. أوشك أن يدسّه لكن الباب صرَّ مندفعاً قبل أن يدفعه. دخل. لفحه صمت شرّير اندفع نحوها. جسدها ممدّد كما تركه لكنه مستور باللحاف حتى العنق. هل داعبت النسمة جسدها فأرخت عليه الستار؟ أم تراها سترته عن عيون القمر؟

وضع الأكياس بهدوء خشية أن يفزعها فجأةً من أحلامها. جلس. تأمل وجهها، هالته تلك الزرقة التي افترشته. لامس جبينها، أرعشته البرودة. وعيناها المفتوحتان ببياضهما الذي غيّب السواد، وخطّان من ملح الدموع على الجانبين.

هزّها برقّة... نادى باسمها. لم ترد فهزّها بعنف، صرخ باسمها يكاد أن يشقّ السكون. لم تتحرّك. سحب الغطاء. فاجأه الحبل. ذلك الذي طوّح بمثله إلى المرحاض لتخرج منه دانة. كان يلتفّ

بخشونته حول عنقها الطريّ. معقود بقسوة. طرفاه ينسدلان على صدرها.

حصة. عصفورته الحبيبة ذبيحة... مذبوحاً صار يصرخ. يناديها. يحاول أن يفكّ العقدة المتمكّنة. صبَّ عليها الماء. أرادها أن تشهق فلم تشهق. توسّل إليها نائحاً أن تقوم فغاب نواحه في العدم. فَقَدَ السيطرة على نفسه. عارك جسدها جذبه وألقاه. كرّر وهو يصرخ، ويعوي، يترنّح، ويشد الحبل... يشده... و...

يد قاسية تطبق على عنقه، تسحبه بعيداً ويده التي تصكّ على الحبل تشدّ حصة إليه. صراخه وصوت عمّته يطغى عليه:

- قتلتها يا سالم...!!

التفت إليها. تفاجأ بوجهها يفحُّ النار والحقد. أنياب حادة تبرز من ثغرها الذي يواصل الصراخ:

- قتلتها... قتلتها...

أبوه يقف وقد تعفّر وجهه بالرّعب، واللّوعة. اندفع إليه. يخبط صدره، يعوي في وجهه، ثم وجه عمته، ويعود إلى حصة يهزّها. يتوسّلها. وصوت عمّته لا يرحمه ويوجِّه التهمة: قتلتها... قتلـ...

* * *

لا...

لا... لم أقتلها... عمّتي قتلت دانة... هذا ليس حبلي... اهربي يا حصة... أنا... لا.

عمّتي... قتــ... دانـة... حصّـة... لـم أقتلها... لا... ... لا... ... لا...

ملأ صراخه الغرفة...

الطبيب

الممرضة

وانغرزت إبرة في ذراعه...

* * *